



مقاربة معجمية للوحدة اللغوية "قرية" في سياقها القرآني

عبيد الله عبد الوهاب العباسي

أستاذ مشارك- قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة الملك عبد العزيز- المملكة العربية السعودية
Aalabbasi@kau.edu.sa

تاريخ استلام البحث: ٢٠٢٠/٤/١٧ تاريخ قبول البحث: ٢٠٢٠/٩/١ DOI: <https://doi.org/10.31559/JALLS2020.2.3.1>

الملخص:

هذا البحث يتناول بالدراسة الوحدة المعجمية الأساسية/ ليكسيم "قرية" الوارد ذكرها في القرآن الكريم، ليُجلى بوضوح انفراد هذا المصطلح بمواصفات خاصة، لا يختلط معها معناه مع غيره من الوحدات المعجمية المشابهة مثل "مدينة، بلدة": مما يساهم في تدعيم مفهوم الإعجاز اللغوي للقرآن. جدلية البحث قائمة على إثبات أن القرآن لا يختار كلماته اعتباطاً، وأن الاختيار عملية ناتجة عن وعي تام بالدلالات المعجمية، والخصائص السياقية، والوظيفة الاجتماعية التي تؤديها وتكشف عنها كلماته. لتحقيق ذلك، البحث يوظف منهجية سياقية بأبعاد معجمية تبحث في أوجه المعاني المنبثقة عن "قرية" في مواضع ورودها كجملة في القرآن، باعتبارها "كتلة لغوية" ثلاثية المحاور، وهي: دلالاتها المعجمية المنبثقة عنها، هيئاتها الصياغية والتركييبية المتشكلة عليها، وسياقاتها النصية الواردة فيها. فيما يخص أهمية البحث فتتجلى في توجيه دفة الفهم لمعاني "قرية" في مواضعها المختلفة من القرآن الكريم من خلال الرجوع للمنابع اللغوية المعجمية للمفردة ومن ثم تتبع تفرعاتها الاصطلاحية، أمّا فرادته فممنبثقة من مساهمته في وضع حدٍ للجدال الذي طال احتدامه حول معنى "قرية" القرآنية، ولهذه المساهمة أهميتها في إنتاج ترجمات للقرآن تقف على المعنى الأصيل للألفاظ القرآنية، وتنجو بها بعيداً عن الدارجة المغلوطة.

الكلمات المفتاحية: قرية؛ منهجية معجمية؛ قرآن؛ إعجاز لغوي؛ ترجمات.



المقدمة:

استحوذت لفظة "قرية" على اهتمام العديد من الدراسات والنقاشات العلمية التي ركزت غالبيتها على فهمها من منظور مقارن مع لفظة "مدينة" أو "بلدة": فغالبية الآراء أدلت بدلوها في الموضوع انطلاقاً من فهم أوّلي لـ"قرية" على أنها "البلدة الصغيرة ذات الأجواء المعيشية الريفية" المناقضة لمعنى المدينة وما تمتاز به من حضارة ورؤي. في الحقيقة، بعض الدراسات ذات المنهجية المقارنة بين لفظي قرية ومدينة أسّست بنائها على منهجية خاطئة أفضت إلى ما نحن فيه من لغط، تجاه التوظيف القرآني للكلمتين، يغفل مفهوم الإعجاز اللغوي للقرآن^١.

وهنا لا ينبغي أن نهمّل الإشارة إلى محاولات بعض دارسي القرآن، من المعاصرين، في فهم كلمة "قرية" على أساس وعي بهذا الإعجاز القرآني: نذكر منهم بخاصة جهود علي الكيالي ومحمد شحرور. علي الكيالي (٢٠١٨)، في محاضراته على اليوتيوب، حاول فهمها جديداً للكلمة بتفريقها عن البلدة والمدينة إذ يقول: "إذا المجتمع كله أقارب فهذا دلالة قرابة من النسب تجمع أفرادها: مكة وبطونها من قريش الساكنة فيها أطلق عليها "بلدة" ... يقسم القرآن بها: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (البلد: ١)﴾. "ويستكمل الكيالي إنه "إذا كان المجتمع كله متفقاً على فكرة أو مهنة معينة فهذا يُطلق على مكان سكناهم "قرية"، وأن "المدينة" تُطلق إذا كانت جامعة لعنصري الخير والشر بين أفرادها (كفرة ومسلمين، أعداء ومناصرين (لعقيدة)". لكن شرح الكيالي يظل قاصراً عن تفسير إشارة القرآن لمكة على أنها قرية في موضع آخر: ﴿وَكَايِنَ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ الَّتِي أَهْلَكْنَا هُمُ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (محمد: ١٣). وفيما يخص دراسة محمد شحرور (١٩٩٤) عن الدولة والمجتمع فتخلص إلى أن معنى القرية في التنزيل الحكيم يشير إلى الحضارات (القرى) (ص. ٢٤٢)، وذلك استناداً

^١ ما تهدف إليه الدراسة هو التدليل على مفهوم الإعجاز القرآني بشكل علمي؛ حيث هناك من المستشرقين والمستغربين من لا يزال يشكك في الإعجاز البياني للقرآن، ويعتبره موضوعاً للجدل، وحجته في ذلك انعدام التوظيف لمقاربات علمية في فهم القرآن: انظر المرجعين التاليين:

لقلوه تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَسُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدَمْنَا مَا تَدْمِيرًا (الإسراء: ١٦)﴾. لكن دراسة شحورر تظل أيضاً فاصرة عن تفسير قرية في مواضع أخرى لا يمكن فهم معناها فيها على أنها "حضارة"، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (الزخرف: ٤٧، ٣١)﴾.

هذا البحث يستفيد من جميع الجهود الجليلة، معاصرة وقديمة، الباحثة في معنى هذه الكلمة القرآنية، فبيني على الصالح منها ويجلي مواطن الخلل فيما يتناقض والفهم الصحيح للكلمة في مواضعها المختلفة من القرآن. ومع تقديرنا لجميع الجهود الأكاديمية والاجتهادية لتأسيس فهم صحيح للكلمة إلا أن الجدال حول معناها مازال في أوجه، واللغظ فيه مازال مستمرا. لذا الدراسة الحالية تسلط الضوء على موطن الخلاف والباعث عليه، ومردّه، في تقديرنا، إلى فهم المفردة "قرية" باعتبارها "لفظة" وليس "كتلة لغوية"؛ متعددة الهياكل في مبناها الصياغي والتركيبى والسياقي، مما يجعلها ذات طبيعتين: ثابتة باعتبار أصلها المعجمي؛ ومتغيرة باعتبار كتلتها اللغوية المتشكّلة فيها، في مواضعها المختلفة من القرآن. وعليه، فمجال البحث هو التركيز على دراسة "قرية" باعتبارها ليكسيما (وحدة معجمة أساسية) ذا دلالة مستقلة عن غيره من الليكسيما، وله أيضا دلالات متعددة تختلف باختلاف صياغاتها وتراكيبها المتنوعة التي وردت عليها في القرآن، تُفهم من خلال سياقاتها النصية المحتضنة لها. البحث يهدف إلى تبيان أن القرآن معجزٌ في توظيفه لمفرداته: فلا اعتبارية أو تبادلية أو تجويزية في استخدامه لأي عنصر من العناصر المكوّنة لنصوصه، لكنها الدقة والمنطقية والمراعاة الشديدة لأبعاد هذه العناصر؛ وذلك باعتبار كل منها له دلالات مخصوصة، وعليه فمنظور البحث يوجه دفة الدراسة لتأكيد جانب من جوانب الإعجاز اللغوي للقرآن.

سنعتمد، في فهم دلالات "قرية" على منهجية معجمية، تراعي دراسة المفردة في مستواها المعجمي ابتداءً، دون فصلٍ له عن مستويها التركيبي والسياقي؛ ديدى روزيادا (Dede Rosyada) يقول في ذلك: "من المفهوم أن تفسير القرآن في ضوء منهجية سياقية يحتاج على الدوام منهجية معجمية لفهم معاني الكلمات، سواءً على مستوى المفردة أو النص للكلمات في كل آية." (Rosyada, 2017, p.3) الدراسة بين يدي القارئ تنأى بنفسها عن الفصل بين المستويين المعجمي والسياقي للمفردة موضوع الدراسة،^٢ باعتبارها منبثقة من الجذر اللغوي للكلمة، المتفرع منه المعنى الاصطلاحي وتشعباته الدلالية. وهو منهج يتماشى وهدف الدراسة المتطلع إلى الكشف عن المعاني المرتبطة بتحديد بنية دلالية ثابتة لـ"قرية" في أصلها المعجمي، ومتعددة في سياقاتها الواردة عليها في مواضعها المختلفة من القرآن الكريم. وستكون مرجعية الدراسة للمستوى المعجمي كلا من معجمي: ١- العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت. ١٧٠ هـ - ٧٨٦ م)، باعتباره أول معجم في اللغة العربية، والأقرب لفهم الكلمة على وجهها الذي وعاه العرب في فترتهم الأقرب لزمن التنزيل للقرآن الكريم؛ و٢- لسان العرب لصاحبه جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت. ٧١١ هـ - ١٣١١ م)، باعتباره متوسعا في شرح المعاني التي أتت بها الفراهيدي، وموضّحا لها بشكلٍ يجلي معانيها لقارئ معاصر لمعاني كلمات القرآن في أصولها المعجمية. وفيما يخص دلالات "قرية" حسب سياقاتها القرآنية فسنعتمد في فهمها على المستويات الخمس الدالة على معانيها: (من تعريفات تحيط باللفظة، مرادفات تلحقها، مضادات تباينها، أمثلة تشرحها، استنباطات مستنتجة)^٣ نعتمد أساسا في تجليتها على كتب التفسير لكل من محمد بن جرير بن غالب الطبري (الشهير بإمام المفسرين) (ت. ٣١٠ هـ - ٩٢٣ م)، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت. ٦٧١ هـ - ١٢٧٣ م)، وعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت. ٧٧٤ هـ - ١٣٧٣ م)؛^٤ لأنها تشكّل المرجعيات التي تقوّل في إطارها فهم غالبية الدراسات الحديثة لمفردات القرآن، ومنها حصل اللغظ بخصوص تفسير "قرية". علما أن منهجيتنا تقتضي عرضا كرونولوجيا (تدرجا تاريخيا) عكسياً: حيث سنبدأ في عرض تفسير الآيات كما وردت عند المتأخر زمنيا منهم (ابن كثير) ثم نتدرج في عرض تفاسير السابقين عليه تاريخيا: (القرطبي) رجوعاً إلى (الطبري)، لمعرفة المستقر الذي وصل إليه الفهم في تفسير "قرية" عند المتأخرين من المفسرين (ابن كثير، القرطبي) وكيف اختلف عما ابتدأت عليه عند الأقرب منهم إلى زمن التنزيل للقرآن الكريم (الطبري).

وفيما يخص الاهتمام بتفسير معنى "قرية"، في ضوء تشكّلاتها الصياغية وتراكيبها المختلفة التي وردت عليها في القرآن، فمهم البحث بالنظر في ورود الصورة الليكسيمية للكلمة في الهياكل التالية: المفرد النكرة—(قرية)؛ والمفرد النكرة المضاف إلى نكرة—(أهل قرية)؛ والمفرد المعرف بالإضافة إلى ضمير—(قريتك، قريتكم، قريتنا)؛ والمفرد المعرف بـ(ال) —(القرية)؛ والمفرد المعرف بـ(ال) وبالإضافة

^٢ انظر في هذا الموضوع، جيرارتس (٢٠١٢).

^٣ نحيل من يرغب في فهم تفصيلي لهذه النظرية إلى المرجع التالي: (Cohen, M. (1977).

^٤ البحث يعتمد في توثيق مراجع كتب التفسير المختارة أعلاه على البرنامج الأكاديمي الإلكتروني المعتمد من قبل جامعة الملك سعود، "مشروع المصحف الإلكتروني"، <http://www.quran.ksu.edu.sa>، <http://www.quran.ksu.edu.sa>، هذه الصفحة الإلكترونية صفحة موثوقة وموثقة علمياً، فقد تم تأسيسها بجهود أكاديمية بإشراف من هيئة معتمدة من جامعة الملك سعود، وذلك في سبيل التأسيس لمرجعية علمية جادة وتوظيف المعرفة التكنولوجية الحديثة للوصول لمصادر ومراجع دراسية أساسية في البحوث الأكاديمية المعاصرة، ولذا وجب التنبيه إلى أنّ التوثيق للمصادر والمراجع المذكورة أعلاه سيكون من خلال الإحالة إلى صفحات مواقع إلكترونية (بالإضافة لطبعات ورقية).

لكلمة (أصحاب) — (أصحاب القرية)؛ والمفرد المعرف ب(ال) والواقع بدلا من اسم الإشارة للقريب — (هذه القرية)؛ والمفرد المعرف ب(ال) وواقع بدلا من اسم الإشارة للقريب (هذا) ومضافا ل(أهل) — (أهل هذه القرية)؛ والمثنى المعرف ب(ال) — (القرية)؛ وجمع النكرة — (قرى)؛ والجمع المعرف ب(ال) — (القرى)؛ والجمع المعرف ب(ال) وواقع بدلا من اسم الإشارة للبعيد (تلك) — (تلك القرى)؛ والجمع المعرف ب(ال) وبالإضافة ل(أهل) — (أهل القرى)؛ وأخيرا، الجمع المعرف ب(ال) والإضافة لكلمة (أم) — (أم القرى)؛ والجمع المتبوع بكلمة "أم" المضافة للضمير (القرى.. أمها). والدراسة تضع في الاعتبار تناول صياغات وسياقات الليكسيم على منوال دو وسوسير الزمني ثنائي المحور: السكوني (الثابت) والتعاقي (المتطور).^٥

مكسيم "ق.ر.و" و"ق.ر.ي" بين السياق القرآني وفهم المفسرين: التوافق والتناقض:

١. "قرية" في حال الإفراد:

• التنكير:

في تعريف "قرية"، الواردة في القرآن الكريم، توافقت آراء كثير من الشارحين والمفسرين لهذه المفردة القرآنية على أنها تعني "البلدة الصغيرة"، بمعنى مكان تجمع الناس، صغيراً كان أو كبيراً، أيّاً كانت الصياغات والسياقات الواردة عليها الكلمة. فعندهم (قرية، القرية، قرى، القرى، أم القرى أو القرى.. أمها) تعني معنى واحداً لا يخرج عن إطار "الموقع الجغرافي". هكذا هو التعميم الساذج في فهم هذه المفردة القرآنية، بل إن بعضاً من مدعي علم بالقرآن من المعاصرين يذهب إلى القول إن "القرية" و"المدينة" تُستخدمان بتبادلية ترادفية في القرآن: فتُستخدم إحداهما مكان الأخرى، في مواضعهما المختلفة من القرآن، بمزاوجة بين المفردتين؛ دون تمييز لكونهما وحدتين معجميتين مستقلتين عن بعضهما البعض.^٦ وهذا الفهم، في الحقيقة، يُظهر جهلاً بيناً بموضوع الإعجاز اللغوي للقرآن، ومنهجيته في بناء مادته اللغوية، البعيدة كل البعد عن الاعتباطية والعشوائية في استخدام المستويات اللسانية المتعددة المتكوّن منها بنية نصوصه؛ ما يستحيل في ضوءها قبول هكذا آراء تتغافل عن مفهوم "الوعي القرآني ببنية اللغوية"، المنضبط في إطارها النظم القرآني، المرعي لللطيف والدقيق من الدلالات لكل عنصر من عناصره المكوّنة لنصوصه: ابتداءً من استقلالية الدلالة لكل صوت من أصوات حروفه، وانتهاءً بالترابط الحاصل بين مجمل سورة.

في الحقيقة، إن أول ما استرعى انتباهي لضرورة معالجة معنى "قرية" هو قراءة في سورة الطلاق استوقفتني تحديداً عند الآية: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّ بِنَاهَا عَدَابًا نَّكَرًا﴾ (الطلاق: ٨).^٧ فالتفسير التقليدي لكلمة "قرية" على أنها "البلدة الصغيرة"، كما سنرى فيما يلي، يُظهر تنافراً شديداً مع السياق العام للسورة وموضوعها. لتوضيح ذلك، قراءة في مجمل آيات السورة الاثنتي عشرة تضعنا على مقربة من فهم هذا التنافر الذي استشعرته:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِّن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَن يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغَ أَجَلَئِنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَنَسْنَ مِنَ الْمُحِيضِ مَن نَّسَانِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِمَّا تَأْتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّ بِنَاهَا عَدَابًا نَّكَرًا (٨) فَذَاقَتْ وَتَالَ أَمْرَهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا حُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ (الطلاق):

^٥ انظر الفهم لهذه النظرية في: ماطوري، ج. (١٩٩٣)، ص: ١١٣-١١٧.

^٦ انظر، مثلاً، خالد المصلح، (٢٠١٥). [الدخول: ٨ فبراير ٢٠١٨].

السورة تتحدث في مجملها، كما يشير مسماها، عن الطلاق. فأياتها السبع الأول يشكل موضوعها الأساسي "آليات تطبيق الطلاق في المجتمع الإسلامي، والإجراءات الواجب اتباعها عند وقوعه". وهي من التفاصيل التي لا مجال للخوض فيها هنا؛ لأنها لا ترتبط بموضوع البحث بشكل مباشر. ما يهمننا فقط هو تبيان أن قضية (الطلاق) التي تناقشها السورة بشكل مباشر في آياتها السبع الأول تجعل القارئ، مع وصوله في القراءة إلى آياتها الخمس الأخيرة، المكملّة للسورة (٨-١٢) يستشعر انقطاع الصلة لهذه الآيات الأخيرة مع السبع السابقة عليها، وخروجها عن إطار الموضوع الأساسي للسورة. ذلك أن الآيات (٨-١٢) تنفرد من إطارها الاجتماعي (الطلاق) إلى إطار عقائدي (عقاب الله للكافرين): حيث ينتقل الحديث من آليات الطلاق إلى الحديث عن عذاب الله لـ"قرية" عنت عن أمر ربها، حسب القراءات التفسيرية التقليدية للآيات. فقد توافق تفسير علماء الكتاب لهذه المفردة على أنها "بلدة ما" استحضت عذاب الله بسبب كفرها وعصيانها له تعالى. قبل عرضنا لآراء المفسرين لهذه المفردة نذكر أولاً بما أوردها من مقدمة البحث عن منهجية العرض الكرونولوجية المراعية لعرض آراء المتأخر من المفسرين الباحثين في معنى "قرية" أولاً ثم التدرج في الرجوع تاريخياً إلى عرض مفهومها عند الأقرب من التفسير لزمّن التنزيل القرآني؛ لملاحظة ما ثبت عليه الاختيار عند المتأخرين من المفسرين فيما ورد عند السابقين عليهم. ففيما يخص الفهم للمصطلح عند ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ - ١٣٧٣م)، نجده يذكر في تفسير الآيات المخطّط والمحرّر تحتها أعلاه ما يلي:

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره وكذب رسله وسلك غير ما شرعه، ومخبراً عما حلّ بالأمة السالفة بسبب ذلك، فقال: ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾، أي: تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله. ﴿فَحَاسَبُنَاهَا جِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّيْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾؛ أي: منكرًا فظيماً (١٩٩٩، مج. ٨، ص. ١٥٥).

وفي فهم القرطبي (ت. ٦٧١هـ - ١٢٧٣م) لهذه الآيات، "قرية" تظل في إطار كونها بلدة استحضت العذاب لمخالفتها لأوامر الله ونواهيها، فيقول: قوله تعالى: ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ لما ذكر الأحكام ذكر وحذر مخالفة الأمر، وذكر عتوّ قوم وحلول العذاب بهم. وقد مضى القول في "كأين" في ﴿آل عمران﴾ والحمد لله. ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾؛ أي عصت؛ يعني القرية، والمراد أهلها. ﴿فَحَاسَبُنَاهَا جِسَابًا شَدِيدًا﴾؛ أي: جازيناه بالعذاب في الدنيا وعدّيناه عذاباً نكراً في الآخرة. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ فعدّيناه عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع والقحط والسيوف والخسف والمسح وسائر المصائب، وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً. والنكر المنكر. وقُرئ مخففاً ومثقلاً؛ وقد مضى في سورة الكهف. (٢٠٠٦، مج. ٢١، ص. ٦١).

القرطبي إذن يؤكد فهمه للقرية على أنها مرادفة لأهل القرى الذين جاء ذكرهم في القرآن واستحقوا ألواناً مختلفة من العذابات بالجوع، القحط، الخسف... إلخ. أمّا الطبري (ت. ٣١٠هـ - ٩٢٣م) في مؤلفه، السابق تاريخياً على التفسيرين أعلاه، فنجدّه يُجزل القول في توضيح المعنى، مستنيراً في ذلك بآراء غيره من المفسرين، لكنه، في الوقت نفسه، لا يبعد كثيراً عن فهم "قرية" في ضوء معناها المرادف لأهل قرية، فيقول: وقوله: ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ يقول تعالى ذكره: وكأين من أهل قرية طغوا عن أمر ربهم وخالفوه، وعن أمر رسل ربهم، فتمادوا في طغيانهم وعتوّهم، ولجوا في كفرهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنا محمد بن الحسين، قال: [حدّثنا أحمد بن المفضل، قال: [حدّثنا أسباط عن السدي، في قوله: ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ قال: غيّرت وعصت. حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال، قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ فَحَاسَبُنَاهَا جِسَابًا شَدِيدًا، قال: العتوا هاهنا الكفر والمعصية، عتّوا: كفرًا، وعتت عن أمر ربها: تركته ولم تقبله. وقيل: إنهم كانوا قومًا خالفوا أمر ربهم في الطلاق، فتوعد الله بالخبر عنهم هذه الأمة أن يفعل بهم فعله بهم إن خالفوا أمره في ذلك. ذكر من قال ذلك: حدثني ابن عبد الرحيم البرقي، قال: [حدّثنا عمرو بن أبي سلمة، قال: سمعت عمر بن سليمان يقول في قوله: ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ قال: قرية عذبت في الطلاق. وقوله: ﴿فَحَاسَبُنَاهَا جِسَابًا شَدِيدًا﴾ يقول: فحاسبناها على نعمتنا عندها وشكرها حساباً شديداً، يقول: حساباً استقصينا فيه عليهم، لم ننعف لهم فيه عن شيء، ولم نتجاوز فيه عنهم. كما حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال، قال ابن زيد، قوله: ﴿فَحَاسَبُنَاهَا جِسَابًا شَدِيدًا﴾ قال: لم ننعف عنها الحساب الشديد الذي ليس فيه من العفو شيء. حدثني عليّ، قال: [حدّثنا أبو صالح، قال: [حدّثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس، قوله: ﴿فَحَاسَبُنَاهَا جِسَابًا شَدِيدًا﴾ يقول: لم نرحم. وقوله: ﴿وَعَدَّيْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ يقول: وعذبناها عذاباً عظيماً منكرًا، وذلك عذاب جهنم. وقوله: ﴿فَدَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ يقول: فذاقت هذه القرية التي عنت عن أمر ربها ورسله، عاقبة ما عملت وأنت من معاصي الله والكفر به. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنا محمد، قال: [حدّثنا أحمد، قال: [حدّثنا أسباط، عن السديّ، قوله: ﴿فَدَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ قال: عقوبة أمرها. حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال، قال ابن زيد، في قوله: ﴿فَدَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ قال: ذاق عاقبة ما عملت من الشرّ، الوبال: العاقبة. حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: [حدّثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿فَدَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ يقول: عاقبة أمرها. حدثنا محمد بن عمرو، قال: [حدّثنا أبو عاصم، قال: [حدّثنا عيسى؛ وحدثني الحارث، قال: [حدّثنا الحسن، قال: [حدّثنا ورقاء جميعاً، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قوله: ﴿فَدَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ قال: جزاء أمرها. حدثني محمد بن سعد، قال: [حدّثني أبي، قال: [حدّثني عبي، قال:

[حدّثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله: ﴿فَدَاقَتْ وَيَالِ أَمْرِهَا﴾ يعني بوبال أمرها: جزاء أمرها الذي قد حلّ. وقوله: ﴿وَكَانَ عَاقِبَتُهُ أَمْرًا حُسْرًا﴾ يقول تعالى ذكره: وكان الذي أعقب أمرهم، وذلك كفرهم بالله وعصيانهم إياه خسراً: يعني غبناً، لأنهم باعوا نعيم الآخرة بخسيس من الدنيا قليل، وآثروا اتباع أهوائهم على اتباع أمر الله. يقول تعالى ذكره أعد الله لهؤلاء القوم الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله عذاباً شديداً، وذلك عذاب النار الذي أعدّه لهم في القيامة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يقول تعالى ذكره: فخافوا الله، واحذروا سخطه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه يا أولي العقول. كما حدثنا محمد، قال: [حدّثنا أحمد، قال: [حدّثنا أسباط، عن السدي، في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ قال: يا أولي العقول. وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقول: الذين صدقوا الله ورسله. وقوله: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ * رسولاً] اختلف أهل التأويل في المعنى بالذكر والرسول في هذا الموضوع، فقال بعضهم: الذكر هو القرآن، والرسول ﷺ. ذكر من قال ذلك: حدثنا محمد، قال: [حدّثنا أحمد، قال: [حدّثنا أسباط، عن السدي، في قوله: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ * رسولاً] قال: الذكر: القرآن، والرسول: ﷺ. حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال، قال ابن زيد، في قول الله ﷻ: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ قال: القرآن روح من الله، وقرأ: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وقرأ: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ * رسولاً] قال: القرآن، وقرأ: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال: بالقرآن، وقرأ: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ قال: القرآن، قال: وهو الذكر، وهو الروح. وقال آخرون: الذكر: هو الرسول. والصواب من القول في ذلك أن الرسول ترجمة عن الذكر، ذلك نصب لأنه مردود عليه على البيان عنه والترجمة.

فتأويل الكلام إذن: قد أنزل الله إليكم يا أولي الألباب ذكراً من الله لكم يذكركم به، وينهكم على حظكم من الإيمان بالله، والعمل بطاعته، رسولاً يتلو عليكم آيات الله التي أنزلها عليه ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ يقول: مبينات لمن سمعها وتدبرها أنها من عند الله (٢٠١، ٢٠٣، مج. ٢٣، ص.ص. ٧١-٧٤).

إذن توافقت آراء المفسرين (الطبري، القرطبي وابن كثير) على أن "قرية" الواردة في سورة الطلاق هي إشارة "لقرى" استحق أهلها عذاب الله بسبب عصيانهم لما أمر الله به ونهى عنه. لكن ما يستوقفنا، فيما نقله الطبري من آراء شارحين غيره لهذه الآيات، هو ذلك الفهم من عمر بن سليمان لـ"قرية" الواردة هنا على أنها: "قرية عُذِّبَتْ في الطلاق". ابن سليمان إذن يظل مفهومه لقرية على أنها "بلدة صغيرة"، متواتراً مع ما غلب من شروحات لهذه المفردة، لكنه يُخرجها من مجموع القرى المشار إليها باستحقاق أهلها عذاباً ربانياً لمخالفتهم لأوامر الله ونهيه في أمور عقديّة إلى أنها استحقته لمخالفته تعالى في قضية اجتماعية (الطلاق). وهذا فهم يحدد بنا عن الفهم التقليدي للقرى المستحقّة لعذاب إلهي لسبب عقاندي إلى سبب اجتماعي، ويربطها بسياق السورة وموضوعها الأساسي (الطلاق). لكن التاريخ لا يخبرنا شيئاً عن هذه القرية المعدّبة في الطلاق، أو عن نهبها (أو نذيرها) الذي خالفته واستحققت بسبب هذه المخالفة العقاب؟ نحن نُترك مع علامات استفهام عريضة إزاء هذا الطرح الناقص لموضوع (القرية المعدّبة في طلاق)، فلا نجد مجيباً عليها في كتب التفاسير المعتمدة. لكن هذا الطرح يظل هو الأفضل في محاولته مقارنة "قرية" مع السياق الاجتماعي للسورة الواردة فيها. هي محاولة محمودة إذن من ابن سليمان لمعالجة المألّف بخصوص التنافر بين الاجتماعي والعقدي لسياق "قرية" القرآني. لكنها، في الوقت نفسه، تبقى ناقصة لأنها لا تزال الغموض الذي يلف بالمعنى حال بقاء الفهم لـ"قرية" على أنها "بلدة صغيرة". في محاولتنا لتجلية هذا الغموض، فسيكون أول ما نعمده في فهمها هو اعتبارها وحدة لغوية ذات كيانين، أحدهما مستقلٌّ، قائمٌ بذاته (كيان معجمي)؛ والآخر تبعي، له دلالة المستنتجة من كيان أكبر توجد فيه (كيان سياقي) من منظور اجتماعي. وهذا الفهم للكيانين لا يحدد عن الوظيفة المنوط بالمعجم أداؤها، وهي: "تقديم جميع العناصر المكونة للمعنى الدلالي الذي يتألف منه معنى الكلمة (عطية، ١٩٧١، ص.١٣٤)، ويُلخصها لواء عبد الحسين عطية في النقاط التالية:

- المعنى المعجمي: أي معنى الكلمة المفردة.
- المعنى الوظيفي: أي وظيفة المبنى التحليلي على المستوى الصوتي والصرفي والنحوي.
- المقام: أي القرائن التي تُستشف من الموقف الاجتماعي الذي قيل فيه النص (١٩٧١، ص.١٣٤).

في ضوء هذا الفهم، نستعرض الآن مفهوم المصطلح في المعاجم، لكن قبل عرضنا له نوضح أولاً منهجية الدراسة المعجمية للمصطلحات، كما يعرفها الشاهد البوشيخي، "أنها دراسة معنى المصطلح في المعاجم اللغوية فالاصطلاحية دراسةً نبتدئ فيها من أقدمها مسجلاً أهم ما فيه، وتنتهي بأحدثها مسجلاً أهم ما أضاف" (٢٠٠٢، ص.٢٣). استناداً إلى هذه المنهجية، سنبتدئ أولاً بسرد ما أورده الفراهيدي في عينه (٢٠٠٣)، عن المعنى اللغوي الأصيل لكلمة "قرية"، وما تفرع عنه من معنى اصطلاحي غلب على استعمالها:

القرى، مسيل المعصرة ومثعبها، والجميع القرى، والأقراء ولا فعل له. والقرى: شبه حوض ضخم يُفرغ فيه الماء من الحوض الضخم ترده الإبل والغنم، ويكون من خشب. والقرى: كل شيء على طريقة واحدة. وقرى لهم أقرى قروا أي قصدت نحوهم، قال: "أقرى لهم أنابيب القنا قصداً." وقارية الرُح: أسفله، مما يلي الرُح. وفلان يقترى رجلاً بقوله، ويقترى مسلماً ويقروه أي يتبع. ويقترى أيضاً ويستقرها ويقروها إذا سار فيها ينظر حالها وأمرها. وما زلت أستقرى هذه الأرض قريةً قريةً، والقرية لغة يمانية. ومن ثم اجتمعوا في جمعها على

القرى فحملوها على لغة من يقول: كُسُوة وكُسى، والنسبة إلى القرية قرويٌّ. وأمُّ القُرى: مكة. وقوله تعالى: "وتلك القرى أهلكناهم" أي الكُور والأمصبار والمدائن. [...] قري: والقري: الإحسان إلى الضيف، قرأه يقرئُه قري (ص.ص. ٣٨٤-٣٨٥).

العين يزودنا بالمفاتيح الأولية لفهم معنى "قرية" في استعمالها اللغوية والمصطلح عليها. فلغة، "القرى" هو الحوض مورد شرب الإبل والغنم؛ بمعنى الحوض الصغير المتفرع عن منبع أصيل مزود له بالماء. ثم هو يُتحفنا بأن القرو، في ضوء الفهم للحوض المستقل بمائه عن المنبع: "هو كل شيء على طريقة واحدة"، وأن قولنا: "فلان يقترى رجالاً بقوله، أو يقترى مسلماً، يعني الاتباع لذاك الرجل فيما يقوله، ويقري مسلماً أي يتبعه". ثم هو يضع ما اصطلاح عليه مجتمع العربية في فهم جمع "قرية" على أنه (القُرى): الأمصبار والكُور والمدائن، وأن "أم القرى" أينما ذُكرت في القرآن تعني مكة. وبمراجعة لسان ابن منظور، نجده يتوسع في توضيح معنى الكلمة الذي نختار منها التالي:

القرو من الأرض الذي لا يكاد يُقطع شيء والجمع قُرُو، والقرو شبه حوض، قال الطرمح: مُتَتَّى كالقرو رهن ائثالِم، شبه النؤي حول الخيمة بالقرو، وهو حوض مستطيل إلى جنب حوض ضخَم [...] والقرو مسيل المعصرة ومُعَبها والجمع القُرى والأقراء ولا فِعل له قال الأعشى:

أزهي بها البيداء إذ أعرضت *** وأنت بين القرو والعاصير

[...]

والقرو والقري كل شيء على طريق واحد، يُقال: ما زال على قرو واحد وقري واحد. ورأيت القوم على قرو واحد أي على طريقة واحدة. وفي إسلام أبي ذر: وضعت قوله على أقراء الشجر فليس هو بشعر، أقراء الشجر: طرائقه وأنواعه، واحدها قرو وقري وقري [...] وقرا الأمر واقرأه تتبَّعه ... يقال الإنسان يقترى فلاناً بقوله ويقترى سبيلاً ويقروه أي يتبَّعه ... وقروُت البلاد قرواً وقروُتُها قروياً واقترونها واستقرونها إذا تتبعتها تخرج من أرض إلى أرض ... وقروُت بني فلان واقترونها واستقرونها مررت بهم واحداً واحداً وهو من الإتياع ... وقال بعضهم ما زلت أستقري هذه الأرض قريّة قريّة ... وتقول تقروُت المياه أي تتبعتها واستقروُت فلاناً سألته أن يقريتي. وفي الحديث والناس قواري الله في أرضه أي شهداء الله أخذ من أنهم يقرون الناس يتبعونهم فينظرون إلى أعمالهم [...] وقيل: القارية الصالحون من الناس. وقال اللحياني: هؤلاء قواري الله في الأرض، أي شهود الله لأنه يتتبع بعضهم أحوال بعض، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو فقد شر وجب [...] الأصمعي: رجع فلان إلى قرواه أي عاد إلى طريقته الأولى (١٩٩٩، ج. ١١، ص.ص. ١٤٥-١٤٨).

"قرية" إذن في حقل دلالتها المعجمي اللغوي من الجذر "ق.رو." هي حوض الماء المستقل بذاته عن الحوض المزود له بالماء، وهو بهذا المعنى فرغ من أصل، جزء من كل، شريحة من جمع، لكنه الفرع والجزء والشريحة المستقلة بنفسها، المنفردة بطريقتها، عن مكوتها الأصيل. وهي في حقل دلالتها المعجمي الاصطلاحي: المنهج يسلكه أتباعه، ومنه جاء القارية (على وزن فاعلة) أنّها الصالحون من الناس، أي الفئة من الناس تنتهج النهج الصالح في سلوكها. الفهم الاصطلاحي، إذن، لـ"قرو"، يعني، في عمومها، الفئة من الناس (أو الشريحة من المجتمع) يؤلّف بينها طريقة واحدة من السلوك والعادات والتقاليد تنفرد بها، وتميَّزها عن سمات مجتمعا الأصيل المتحدرة منه والمنتمية إليه. يقارب هذا الفهم لقرية محمد شحور الذي يقول، فيما استخلصه من كتابه الدولة والمجتمع - هلاك القرى وازدهار المدن، ما يلي:

جاء معنى القرية في التنزيل الحكيم، على أنها أيّ تجمع سكاني في منطقة جغرافية ما بغض النظر عن عدد السكان والمساحة، يتفق أفرادها على اتباع سلوك واعي موحد يجمع بينهم، والتمسك به والثبات عليه. فهذا السلوك الواعي المتفق عليه من أهل القرية يمثل الأحادية. وهو السبب في هلاك القرى كما جاء في التنزيل الحكيم، وقد وصف التنزيل الحكيم هذا السلوك بالظلم والكفر والشرك، وقد توعد الله بهلاك القرى الظالمة والمشركة إما بتدخل إلهي من خارجها، أو بسبب طبقة المترفين فيها التي تتسبب في دمارها (٢٠١٨).

"قرو" على وزن فاعلة (قارية) لم يرد استخدامها في القرآن؛ وفي المقابل نجد (قريّة على وزن فَعْلَة- في حالة الإفراد والتنكير) تتردد في مواضع عديدة من القرآن (٢٣ مرة تحديداً) في سياقات سلبية، من وعيد وإهلاك بسبب سلوكيات من ظلم وطغيان لأفرادها. وفي العربية مفهوم لساني أصيل؛ وهو أن الكلمة تنتهي إلى جذر واحد له معنى مشترك قد تفرقها اشتقاقات ذات معانٍ متضادة (كما هو الحال في الجذر المتكوّن من "ض-ر-ب" ينتج عنه "ضارب" و"مضروب"؛ والجذر (ع-ص-ب)، وهو الجماعة من الناس أو الحيوان، تجد

"عُصبة" منه تستخدم للجماعة تشترك في الحسن والقبیح من الأفعال كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ (القصص: ٧٦)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ (النور: ١١)، بينما تنفرد "عصابة" اصطلاحاً، بمعنى الجماعة تشترك في القبیح فقط من المقاصد والمسالك (عصابة السوء). وعليه، ففي ضوء التفسير الاصطلاحي لـ"قَرِيَّة"، على أنها جماعة من الصالحين، فـ"قرية" تعني جماعة القوم الفاسدين، الخارجين عن طريق الصلاح والإصلاح، وذلك باعتبار السياقات القرآنية الغالب على استعمالها تهديداً ووعيداً.

في ضوء ما سبق يمكننا أن نخلص إلى فهم أولي لـ"قرية" (في صياغتها المفردة النكرة) على أنها "الشريحة من المجتمع التي يتبع بعضها بعضاً في طريقة من السلوك، شاذة عن مجتمعها الناشئة فيه، ويربط بين أفرادها علاقات ذات دلالات متعددة: عقديّة، طبقية، سيكولوجية، أو جنسانية (جندرية)؛ يتم تحديدها بسحب سياقاتها القرآنية الواردة فيها الكلمة." "قرية" إذن، يقوم تعريفها على محورين، ثابت ومتغيّر؛ فهي في الاستخدام القرآني إشارة إلى شريحة من مجتمع—عنصر الثابت، أما "هويّة" هذه الشريحة—عنصر متغيّر، فتكشفها علاقات دلالية تربط "قرية"، في هيتها المخصوصة هذه من الأفراد والتنكير، بسياقها في الآية القرآنية الواردة فيها.

على أساس هذا الفهم، وبالعودة لـ"قرية" في الآية (٨) من سورة الطلاق: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيَّةٍ عَتَتْ عَن مَّرْزَبِهَا وَرَسُولِهَا فَحَاسَنَّاها حَسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّبْنَاهَا عَدَابًا نُّكَرًا﴾ (٨) فَدَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠)﴾ (الطلاق)، يمكننا القول إن "قرية" هنا ذات دلالة جنسانية (جندرية)، لأنها تشير إلى شريحة الأزواج (النساء والرجال) المكلفين بتطبيق الواجبات ذات الصلة بموضوع السورة (الطلاق)، لكنهم يخفقون في تطبيقها كما أمر الله فيأتي التحذير القرآني لهم من مغبة الإفساد لرباط الزوجية بأن عواقبه ستكون وخيمة على مستوى الشرائح المعنية بالتحذير—الجندرية؛ مثلها في ذلك مثل غيرها من الشرائح المجتمعية الأخرى التي وقع عليها العذاب الرباني لمخالفتها الأوامر الإلهية: (حاسبناها، عدبناها، ذاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا، عاقبة أمرها خسراً، وأخيراً عذاب الأخرة: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾). هذا التشديد على أهمية الالتزام بقوانين العلاقة الزوجية كما أقرها المشرع: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا: رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، ثم بيان التبعيات الوخيمة للإخلال بها، وتحميل عواقبها على طرفي العلاقة الأسرية (رجل وامرأة)، هو إدراك عميق لدور هذه الشريحة الجندرية في تعزيز صحة النظام المجتمعي الذي تنتهي إليه أو تفكيك دعائمه والتسبب في خراب بنيانه من أصوله، فكان العقاب الواقع عليها بمقدار فداحة الخلل المتسببة به في نظامها المجتمعي الذي يحرص المشرع على متانة قواعده واستواء سوقه، ثم يعيد المشرع من يقيم القوانين الربانية المنظمة للعلاقة الأسرية ذلك بمثوبة دينوية (الرزق الحسن) وأخرى (جنات تجري من تحتها الأنهار): ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾، كما توعد المسيء بجزاء دينوي وأخروي تقدّمت الإشارة إليه. في ضوء هذا الفهم، العذاب للقرية في هذه الآيات ليس هو الجوع، القحط، الخسف...إلخ، كما جاءت بذلك التفاسير، بل هو عواقب الطلاق وآثاره النفسية والاجتماعية الوخيمة التي يولمها الله من الرعاية والاهتمام ما يدل على إحاطة المشرع الرباني علماً بتفاصيل الحياة الدنيوية وسبل استقامة المعيشة فيها، وأنه تعالى من ينبغي أن يستند إلى أوامره ونواهيه فيما يخص مرجعيات تنظيمها: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

فهم عمر بن سليمان إذن لـ"قرية" على أنها "بلدة عُدِّيت في الطلاق" هو الأقرب في فهم الآية على اعتبار سياقها في موضوع الطلاق المعنونة به السورة. لكن تفسيره يظل قاصراً عن الوصول بمعنى "قرية" إلى مفهوم الشريحة المجتمعية ذات الاعتبار الجندرية الخاص الذي يتسق وسياق النص القرآني. الفهم لـ"قرية" على أنها ذات دلالة جغرافية تشير لمكان ما أصابه عذاب الله بسبب مخالفة أوامره في الطلاق يُضفي غموضاً على هذه القرية المجهولة تاريخياً. هذا التحديد لقرية (بدلالاتها الجغرافية) يضيّق من إطار الفهم للآية الوارد فيها ذكر "قرية"؛ وذلك في ظل التفسير التقليدي لـ"قرية" على أنها منطقة جغرافية بعينها استحققت العذاب فيما مضى من الأزمنة؛ لأسباب عقديّة (أو اجتماعية—كما فسرها ابن سليمان). بينما من شأن التعميم لقرية بدلالاته الجنسانية؛ المشير لشريحة من المجتمع ذات علاقة جندرية (الأسرة تحديداً)، على اختلاف وجودها الزماني والمكاني، أن يزيل هذا الغموض، ويحيلنا لاكتشاف الحلقة المفقودة التي بها نعيد بها للنص القرآني ترابطه الذي كان مفقوداً بين بدايات الآيات (٧-١) وأواخرها (٨-١٢)، بل أيضاً بين سورة الطلاق بمجملها والسورة التي تعقبها في الترتيب القرآني (التحریم): حيث النقلة من عموم الحديث عن تنظيم العلاقة الأسرية بين أفراد المجتمع الإسلامي (تعرضها سورة الطلاق، وترتيبها في القرآن ٦٥) إلى خصوصية الرباط الزوجي بين الرسول—عليه الصلاة والسلام—وزوجاته—رضوان الله عليهن (تعرضها سورة التحريم، وترتيبها في القرآن ٦٦)، ثم هما يشتركان في عدد آياتهما الاثنتي عشرة وفي كونهما مدينتان أيضاً.

من الآن فصاعداً، إذن، أينما حلَّ المفرد النكرة لـ"قرية" سنقوم بتفسيره باعتبار عنصر الثبات والتغيّر الملازمين لدلالته المعجمية: (الثبات) المرتبط بكونه يشير لـ"شريحة من مجتمع"، و(التغيّر) المرتبط بتحديد "الهوية المميزة" لهذه الشريحة بحسب سياق الآيات

الوارد فيها. وفي ضوء هذا الفهم نقرأ الآيات التالية: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفُسُكُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْلَمُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥) (الأنبياء)﴾.

الآيات هنا مواساة للرسول محمد (ﷺ) عما واجهه من معارضة من قومه، تحديداً عن المشركين من أهلها، وليس عن مكة (البلدة) ذات الموقع الجغرافي المعروف. والمواضاة جاءت بتذكيره بما لاقاه الأنبياء من مواقف مشابهة من فئات أشركت برسالتهم. الطبري في تفسيره الجامع للآية (٦) أعلاه يقول: "قال ابن عباس: يريد قوم صالح وقوم فرعون" (ج. ١٤، ص. ١٧٧). وعليه، "قرية"، في الآية (٦)، هي إشارة واضحة إلى شريحة من مجتمع أهل مكة، تحديداً هنا هم المكذِّبون بنبوّة محمد (ﷺ)، ممن تربطهم علاقة عقديّة بالمكذِّبين برسلمهم من الأقوام الغابرة، وليست إشارة إلى الموقع الجغرافي (مكة) التي يقيم فيها المشركون. الشاهد على ذلك متضمن في سياق الآيات المنذرة لهذه الشريحة، بالتذكير بعاقبة من سبقهم من شرائح مكذّبة بالرسول نتيجة اعتقاد إيديولوجي، وعادات طقوسية، وتقاليد بالية لأبناء كانوا متبوعين لهم فأهلكهم الله. وعليه، فالحسبة المنطقية تخبرنا، بأنه لا بد لكل شريحة تتوافق مع هويّتهم العقديّة من مواجهة المصير ذاته. الآية (١١) المتكرّرة فيها "قرية" هي أيضاً متضمنة لقاسم مشترك ذي دلالات "طبقية" بين قرية (الشريحة المنذرة) وقرية (الشريحة المهلكة): فأسباب تكذيب الفريقين لرسلمهم تعود إلى استكبارهم واستعلائهم الذي استندوا إليه في رفضهم لرسالات الله: فهم حينما أحسوا بالهلاك واقع بهم لا محالة أرادوا هرباً وخلصوا منه فكان الخطاب: (لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)). "قرية" هنا إشارة، إذن، إلى شريحة مجتمع مخرجة مترفة متحضرة (ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ) توافقت أفرادها على تكذيب رسلمهم وكان ذلك سبباً في هلاكهم. هذا السياق من الترف والمساكن يسكنها عليّة القوم الواردة فيه "قرية" يبعدها عن معناها التقليدي (بلدة صغيرة ريفية، أو ضيعة)؛ لأن مظاهر الترف والمساكن الفارهة لا يتوافق وطبيعة القرية البسيطة المتواضعة.

هذا المفهوم الطبقي لفاسدي العقيدة نراه يتكرر مع لفظة "قرية" الواردة في قوله تعالى: ﴿الرَّيَّةُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رَبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِبُ الْأُمْلَاقَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلْأِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ (٧) (الحجر)﴾.

مصير هذه الشريحة من المجتمع المكذّبة لرسولها (المدّعية عليه بالجنون) محسوم في الأقدار، وإن قُدر هلاكهم بعد زمن من الاستدراج بالنعم والآمال المقطوعة (ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِبُ الْأُمْلَاقَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ). فهي فئة لاهية بالأمل في دوام النعم الممتعة بها، من مأكول ومدارجه من أصناف الشهوات، غارقة في لذاته، وهنا إشارة لانتماء طبقي تمثّرت به هذه الفئة.

في ضوء هذا الفهم لـ"قرية" على أنها شريحة من الطبقة المخملية المفسدة للمجتمع بأي صورة من الصور (عقدياً، اقتصادياً، أو أخلاقياً) يكون فهمنا أيضاً للآية التالية: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقًا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (النحل: ١١٢)﴾. في هذه الآية، يضرب الله للناس المثل بشريحة من المجتمع ذات حصانة أمنية (أمنةً مُطْمَئِنَّةً)، واكتفاء اقتصادي (يأتيا رزقها رغداً)، أتت من الأفعال ما استوجبت معه سلب نعم الله تعالى منها واستبدتها بنقيضها (الجوع والخوف)، جزاء لعدم أعمال أفرادها ما يستوجب حفظ النعم فيما يكون به تقويم المجتمع وصلاحه.

الآيات القرآنية المستخدمة لـ"قرية" تتعاقد فيما بينها لتؤكد الفهم له على أنه "شريحة مجتمع من الطبقة المرفهة، الموجبة لأسباب ترفها فيما فيه فساد مجتمعي المنتمية إليه، بشكل استحققت معه الهلاك". العقاب الإلهي في الآيات الواردة فيها "قرية" لا يعني وقوعه على المجتمع بكامل شرائحه، بل فقط على الشريحة الظالمة لنفسها بإنكار نعم الله عليها، وعدم تحذرها بهذه النعم فيما يظهر معه صلاح بقية شرائح المجتمع المتحكّمة فيه بقوتها التي منحها الله إياها (غالبا قوة اقتصادية وسياسية). لذا نجد أن سنة الله في سلب هذه الطبقة من نعمها قضت باستدراج مُتُرفها بالفسق، والخروج عن المتعارف عليه من أخلاقيات الفطرة السليمة، ما يستوجب معه نزول العقاب: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدَمْنَا مَا تَدْمِيرًا (الإسراء: ١٦)﴾. بهذا الفهم فإن "مترفو قرية" هم أعلام طبقة المجتمع المخملية ورؤوسها الموجهون لأتباعهم بلزوم ما يقرؤونه عليهم من سلوك، يتوافق وتحقيق رغباتهم الخاصة ومصالحهم الشخصية. هم إذن "أكابر مجرميها" الذين يرد تحديدهم وصفهم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مَجْرِمِينَ لِيَتَذَكَّرُوا فِيهَا وَمَا يَكْفُرُونَ إِلَّا بِنَفْسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (الأنعام: ١٢٣)﴾. وهذا الفهم للشريحة المفسدة بمكانتها الطبقيّة لمن دونها من الشرائح يكون تفسير من وقع عليهم الهلاك في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعشَرَ قَبْلِكَ مَسَاكِينُ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ

إِلَّا قَلِيلًا سَوَّكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (القصص: ٥٨) ﴿. وفي ضوء هذا الفهم أيضاً تكون قراءتنا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (الزخرف: ٢٣)﴾؛ فأكابر مجرمي قرية هم مترفوها المتحكمون باقتصاد مجتمعهم والمقررون لنظمه وسياساته الفاسدة ولذلك استحقوا الهلاك.

في الحديث عن قوم شعيب الذين أهلهم الله بالرجفة تأتي الشروحات للآيات مبنية لهويتهم بأنهم فقط الشريحة المفسدة (اقتصاديًا) لمجتمعهم، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَبِئْسَ شُعَيْبًا بَدَّلْنَا قَوْمَهُمْ إِلَّا خَاسِرِينَ (٩٠) فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاتِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (الأعراف)﴾. نستنتج من الآية أعلاه أن إهلاك الله لقوم شعيب لم يكن لمجملهم على الكلية، بل فقط (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ). ثم تكون الموعدة والدرس المستفاد من هذه الشريحة في قوله تعالى، معقبا على قصتهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) (الأعراف)﴾.

أخذ الله لـ "قرية" بـ "البأساء والضراء" يضاف إلى الشواهد المؤكدة لفهمنا دلالة قرية على أنها "شريحة مجتمعية بمفهومها الطبيعي المتعالي" التي طغت واستبدت فاستحقت ابتلاء الله لها بالبأساء والضراء. فالمعلوم أن الابتلاء لو كان مقصوداً لشرائح المجتمع بطبقاته المختلفة لكان التعبير بالأخذ بـ "السراء والضراء" هو الأنسب؛ لأنه يشمل الابتلاء بأشكاله المتناسبة وطبقات المجتمع، غنيّة وفقيرة؛ فيكون ابتلاء الطبقة المرفهة بالضراء وأخذهم بالبأساء، بينما ابتلاء الطبقة المعدمة باليتم وأخذهم بالسراء. وعليه، فتخصيص البأساء (أعلى مراتب الابتلاء بمعناه السلبي) و(الضراء، أدنى مراتب الابتلاء بمعناه السلبي أيضاً) يعني أن المقصود بالأخذ هنا هم فقط الطبقة المنعم عليها بالجاه والنفوذ في المجتمع، دون غيرهم من الشرائح الأدنى منهم. يتأكد عنصر "الطبقية" كأحد مكونات المعنى الدلالي لـ "قرية" ذي الأبعاد المرتبطة بالجاه والنفوذ في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ؛ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) (سبا)﴾.

هنا تحديد واضح لهوية هذه الشريحة المترفة ذات السلطة المتأنية من التفاخر بالأموال والأولاد، المستقوية بهما على إفساد الأرض بعد صلاحها. فهمنا لـ "قرية" إذن، في هذه الآية، على أنها الطبقة الأرستقراطية (ذات الجاه والنفوذ) في المجتمع يتفلسف بسلاسة في ضوئه سياق الآيات الواردة فيها الكلمة، دون حاجة لتعنُّت الخروج عن مسار النص حال تم تطبيق فهم تقليدي لها يعتبرها "بلدة صغيرة ريفية". ففي الآية القرآنية على لسان ملكة سبا، وهي تستشير زمرتها الحاكمة بخصوص ما ينبغي فعله إزاء تخيير سليمان – عليه السلام – لهم بقبول رسالة الله التي بُعث بها أو انتظار حرب مدمرة، يقول تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُون (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْدَاءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً يَوْكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) (النمل)﴾.

بمقاييس بحكتها كملكة، على معرفة دقيقة بخبايا السياسة وتدابير الانقلابات، تخبر مملأها (أعوانها المستخدمين) من تخوفها من السنتة السياسية القائم عليها تداول الملك: (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْدَاءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً يَوْكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ). فهي تتخوف من إمكانية إفساد سليمان للطبيعة الديموغرافية لمملكتها بجعل أصحاب النفوذ والجاه فيها أذلاء، بسلمهم ما هم فيه من نعم. فهي تحذر (مملأها) من أن أول المتضررين من مناوئة سليمان وعدم قبول دعوته هو قريتهم (شريحته المملكة/ زمرتهم الحاكمة)، وإفساد سليمان لها سيكون بجعل (أعداء أهلها أذلة). فهي كملكة ذات باع في الحكم، وخبرة في الملك، وحنكة في السياسة، تُعلمهم أن الملوك هذا ديدهم في الغزو والحروب (وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ).

وفي إجراءات إهلاك شريحة المستكبرين سنَّ سبحانه أن يسبق الهلاك التذُّر إلى تلك الشريحة، لردعهم عمَّا هم فيه من ضلال، وإتاحة فرصة لرفع العذاب عنهم، أو إقامة الحجة عليهم حال إنزاله: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (الشعراء: ٢٠٨)﴾. ومن بين كلِّ المنذرين يخبرنا تعالى أن قوم يونس فقط هم من أفلحت معهم التذُّر، لذلك هم فقط من استثنوا من نزول العذاب بعد أن كانوا مستحقين له. وفي توضيح أسباب الاستثناء يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخُرِّي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا؛ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) (يونس)﴾. يخبرنا تعالى أن سبب رفع العذاب هو شرح الله صدر هذه الشريحة من مجتمع يونس للإيمان بعد التكذيب. وهذا الاستثناء

من العذاب بعد الانتهاء للحق هو نعمة امتن الله بها تعالى على يونس وقومه واختصهم بها. ذلك أنه تقرر في سنة الله على عباده أنه: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٥): فالسنة الكونية تقتضي نزول العذاب بعد تمكن الضلال من شريحة مجتمع ما يكون بهلاكها؛ نجاةً لبقية المجتمع.

لكن الهلاك لا بد أن يسبق بمنذرين (من بشر أو خبر أو آية أو نعمة أو نقمة)، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٤٨) لِنُحْيِي بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُدَسِّقِيهِ مِمَّا خَلَفْنَا نِعَامًا وَأَتَّامِيَ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا هُنَا لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَيَبْعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) (الفرقان). فالنذير هنا جاء في هيئة جغرافية مائية يتم بمقتضاها توزيع المياه في بقع من الأرض بعينها ومنعها عن أخرى. وهذا التصريف في توزيع المياه على البقع الجغرافية هو من أمثلة النذر التي يبعثها الله للناس فيكون آعاط بعضهم ببعض مدعاة لاهتمامهم للحق. ﴿وَإِنَّ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الإسراء: ٥٨). وتوقيت هذا الهلاك مفاجيء غير متنبأ به، لمضاعفة الخشية من وقوعه: ﴿المص (١) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا نَيَّاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥)﴾ (الأعراف). والمفاجأة في توقيت الهلاك اقتضى التنكير لـ"قرية" في هذه الآية تحديدا، ليفيد تعميم هذا الحكم باعتباره من السنن الكونية.

غالباً ما يُقر السياق القرآني المطروح فيه قضية الحكم بالعذاب على "قرية ما" بأن حيثيات القضية فيما يخص التعدد والفجور والفسق والظلم البين من الشريحة المجتمعية (المقدر عليها الهلاك) هي أهم ما يرد في حيثيات مقاضاتهم مما يبني عليه الحكم عليهم بإهلاكهم، في ذلك يقول تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ (الأنبياء: ١١). والقرآن لا يكتفي في إخبارنا بأسباب الحكم أنه جاء نتيجة لعلم الربي بظلمهم بل يقرر أنه يأتي بعد شهادة شهود من شرائح المستضعفين الذين وقع عليهم الظلم: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أُمَّهَاتُهَا﴾ (النساء: ٧٥)، كما سيأتي نقاشه بتفصيل في موضعه، ثم هو متبوع، بعد نزوله، باعتراف الواقع بهم العذاب باستحقاقهم له بسبب ظلمهم: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (الأعراف).

العدالة الإلهية تقتضي إذن أن يصيب العذاب الفئة الظالمة فقط؛ ما يعني أن الهلاك لا يصيب بلدانا بأكملها، كما هو الفهم الدارج، بل مناطق بعينها حيث يغلب تواجد الفئة الظالمة فيها على المستضعفة ويتشكل في ظل استفحال فسادها معنى (قرية). فاستحقاق شريحة من المجتمع للهلاك يصبح واجباً إذن باستفحال شرها، وتمكنه من مفاصل مجتمعها الذي يبدأ بالانهيار بسبب مفاصلها، ويضرب على ذلك أمثلة من شرائح مجتمعات غابرة من مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم إيرايم وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم موسى):

﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُؤُا مُعْتَلَّةً وَقَصِيرٌ مَّشِيدٌ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ (٤٨)﴾ (الحج).

المعنى الذي نفهم في ضوئه "قرية" على أنها الشريحة الأعلى طبقياً في أي مجتمع ينقض الفهم التقليدي لها على أنها "البلدة الصغيرة" ويؤكد علائق الكلمة المتمثلة في الآية هنا بـ(ببرٍ مُعْتَلَّةً وَقَصِيرٌ مَّشِيدٍ). فكيف – وهذا هو توصيف القرآن لمكان هلاك "قرية" على أنه نموذج لحضارة اكتملت بُنياتها التحتية المشار لها بـ"البر المعلقة" بسبب المهلكة التي حلت بهم، واكتملت أيضاً بُنياتها الفوقية وتمثلها الإشارة إلى "القصر المشيد" – يكون فهمنا لقرية على أنها "الريف غير المتحضر" أو "البلدة الصغيرة النائية؟" "قرية" إذن، بهذا الفهم لسياقها، ليست "البلدة الريفية المغمورة" ضئيلة المظاهر الحضارية، بل هي، بمواصفاتها المذكورة هنا من قوة البناء والتشييد، مدينة ذات حضارة مرموقة. بناءً عليه، "قرية" لا يمكن لها أن تُفهم إلا في ظل التعريف الذي قرره البحث: "الشريحة المهلكة من المكذبين الذين سكنوا منطقة متحضرة ثم أصبحوا أثراً من بعد عين (خاوية على عروشها) بعد أن كانت أخبارهم مائة الدنيا وشاغلة الناس.

الفهم لعبارة "قرية خاوية على عروشها" على أنه توصيف لأجساد هالكة (جثث موتى أو موميوات محنطة) وأنه ليس وصفاً لحال قرية كموضع هلاك، يؤكد شاهد من آية أخرى يرد فيها توصيف "قرية" بـ"خاوية على عروشها" في قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام، يقول تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مائة عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مائة عامٍ فَأَنْظَرُ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَسْتَهْـنِ وَأَنْظَرُ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظَرُ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِئُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

التفاسير تكاد تتطابق فيما يخص معنى "قرية" هذه الخاوية على عروشها على أنها بيت المقدس أو ناحيته من الجبل، أي موقع جغرافي بعينه.^٧ في الحقيقة، القراءة الأولية في هذه الآية تحمل على الظن أن "قرية" تحتمل تفسيرها على أنها "بلدة ذات موقع جغرافي محدد". لكن القراءة المتأنية لا يتقرر في ضوءها إلا تفسير قرية (في صياغتها المفردة النكرة) على أساس الفهم المعجمي الذي قررناه وهو أنها (شريحة من مجتمع بينها قاسم مشترك من روابط متعارف عليها فيما بينهم). فـ"قرية" التي مرَّ عليها من تعددت تأويلات المفسرين في تحديد هويته: فمنهم من قال أنه عُزير، وقال آخرون هو إرميا بن حلقيا، و من زعم أنه إرميا وهو الخضر، والطبري يرد على اجتهادات المفسرين الخاصة بالتعريف بهوية الرجل بمنطقية فيقول: "وجائز أن يكون ذلك عزيرا، وجائز أن يكون إرميا، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم (٢٠٠١، ج. ١، ص. ٥٨١-٥٨٢). ما يهمننا إذن هنا هو توضيح أن من يذكره القرآن بصفته على أنه المتعجب من إمكانية إحياء الله الموات من الأشياء التي مرَّ عليها "وهي خاوية على عروشها"، فكان أن أماته الله مائة عام ثم بعثه ليعطيه درسا عمليا في قدرته تعالى على البعث: فهي طعام الرجل وشرا به باقي على هيئته من الطزاجة التي كان عليها قبل مائة عام؛ لم يصبه العفن والتلف، بينما، ما هو أقوى منهما في الخلقة والتكوين (حماره) هالك لم يبق منه سوى عظام بالية. فيريه الله بأمر عينيه كيف يبعث بعددته هذا الجسد الممزق البالي من جديد بل ويطلع على مراحل الرجعة (من نشز للعظام وملها بالنخاع، ثم كسوها باللحم، وما يليه من عمليات تخليق) يُعاد بعدها الحمار إلى هيئته الأولى قبل الإمامة مائة عام. وهكذا درس في إعادة التخليق يجعل فهمنا لتعجب الرجل من قدرة الله على البعث ليس من رؤيته أرضا خلاء، لا بشر فيها ولا معمار، بل من رؤيته جثثا وأجسادا ممزقة لجماعة هالكة من الناس (قرية/ شريحة من المهلكين)، في حالة موات تام عبَّر عنها بـ"الخواوية على عروشها"، جعل الله على هيئتها ومثالها حمار المتعجب من قدرة الله على الإمامة بإماتته مائة عام ثم بعثه من جديد لهيئته الأولى. هذا الفهم لـ"قرية" يجعلها أكثر اتساقا مع فعل التعجب الذي دارت حول محوره القصة: التعجب من "قرية" بمعنى بلدة خالية من سكَّانها، كما هو التفسير التقليدي لمعناها، لا يستدعي درسا في البعث. لكن، التعجب من رؤية جثث هالكة هو ما استدعى مرور الرجل وحماره بتجربة الإمامة، ليريه كيف يحدث البعث، في درس عملي تطبيقي من الدرجة الأولى. كما أن هذا الوصف بـ"الخواوية" ورد صريحا في القرآن على أنه توصيف لأجساد مهلكين من البائدين من قوم ثمود وعاد في قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِينَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) (الْحَاقَّةُ)﴾.

٢. التعريف:

• "قرية" في حال الأفراد والتعريف (بالإضافة لضمير):

فيما سبق ركزت الدراسة على دلالات "قرية" في هيئتها المفردة النكرة وحال وقوعها مضافة لنكرة "أهل قرية"، وبقي أن نوجّه دفة البحث لنقاش الصياغات الأخرى حال التعريف. قرية المفردة النكرة تأتي في بعض الآيات معرّفة بالإضافة إلى ضمير: ﴿وَكَايُنُ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكِنَاهُمْ فَلَا تَاصِرَ لَهُمْ (محمد: ٤٧، ٣)﴾. الفهم التقليدي لـ"قرية" هنا على أنها مكة (المدينة الحجازية المعروفة) لا يتوافق وتاريخ الدعوة الذي نعرف منه أن بعضا من أهل مكة، فئة المستضعفين تحديدا، قبلت دعوة الرسول (ﷺ) وناصرته، قدر استطاعتها، ضد المناوئين له من المكذبين به وبدعوته. وعليه فالفهم لقرية على أنها "أهل مكة في عمومهم" فهم ينتقص من الإعجاز القرآني الذي لا يختلط عليه تحديد المعاني بدقة ولطافة تامة. "قري+ضمير" يفهم هنا على أنه حزب من الناس، تحديدا حزب المشركين، على رأسهم المنتمون للطبقة ذات الجاه والنفوذ في المجتمع المكي، المستقوون بهما على مناوئة الرسول (ﷺ) وأتباعه ممن كان غالبيتهم من الطبقة المستضعفة مع ابتداء الدعوة المحمدية وإخراجهم من مكة، وعليه جاء وعيد الله لهم بالهلاك كما أهلك أمثالهم من المناوئين لرسولهم من الأقوام السابقة.

^٧ انظر المراجع التالية: الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، كتاب إلكتروني:

<http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/tabary/sura2-aya259.html>

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، كتاب إلكتروني:

<http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/tabary-qortobi/sura2-aya259.html#qortobi>

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، كتاب إلكتروني:

<http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/tabary-qortobi-katheer/sura2-aya259.html#katheer>

[الدخول: ٢٣ مايو ٢٠١٩].

تعريف "قرية" بإضافتها للضمير يضفي عليها معنى جديداً، فهي تكتسب بهذه الإضافة لمبناها معنى يفيد استحكام القاسم المشترك من توجهات فكرية وسلوكية وعقدية على المجموعة المفهوم منها "قرية". هم الآن في هيتهم (قرية+ضمير) زمرة واحدة من فصيل اجتماعي واحد منغلِق على نفسه، يرفض اقتحامه واختراقه من قبل من لا يوافق إيديولوجيته من بقية شرائح المجتمع، هم الآن يكونون مجتمعاً (من المتجبرين) داخل مجتمع (من المستضعفين): ﴿وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِن كُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ؛ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا سَافِقًا نَظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) (الأعراف)﴾.

الفهم ل(أخرجوهم من قريبتكم) يعني بالضرورة أخرجوهم من مجتمعكم؛ ابتداءً الذي استقوى وتجرّج وهيمن على بقية شرائح المجتمع، فأصبح دلالته موقعا جغرافياً محدداً وليس المجتمع طبقاته فقط. وفي هذه الآية تحديداً، هو مجتمع صاحب هوية سيكولوجية مختلة؛ لأن أعضاء اتفقوا على إباحة ما حرّمه الله من شذوذ جنسي. هذه الشريحة صاحبة الهوية السيكولوجية الشاذة التي غلبت على طبيعتهم وفطرتهم السوية التي خلقهم الله عليها يدافعون عنها ضد أي اختراق من قبل دعاة الإصلاح. وبسبب هويتهم المختلة، الراضية للتغير، كان اتخاذهم لهذا الموقف العدائي الصريح من نبيهم لوط – عليه السلام – وإجباره على ترك مجتمعهم/بلدتهم (قريتهم)؛ لأن سيكولوجيتهم المعيبة لا تتفق مع إيديولوجيته السليمة—(إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ).

في ضوء الفهم لدلالة "قرية+ضمير" على أنها "الشردمة المتجبرة العنيدة، متحجرة الرأي، منعدمة المرونة في تقبل الآخر المخالف لرؤيتها الحياتية" يكون فهمنا لقوله تعالى عن قوم شعيب: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولُو كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا؛ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبَّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) (الأعراف)﴾.

قوم شعيب نموذج مشابه لقوم لوط في تشرذمهم ورفضهم الآخر. هم أيضاً شريحة غلب على سلوكها الشذوذ، لكنه هنا، في هذا السياق، بمعناه الاقتصادي. المورفيمان (قرية+نا) دلالتها هنا فصيل من التجار (الشريحة الثرية) الجانح إلى الغش وإفساد الحياة الاقتصادية لمجتمعه، والراض لدعوات الإصلاح التي أتى بها نبيه شعيب – عليه السلام، فما كان منهم إلا أن اتخذوا منه موقفاً مشابهاً لموقف نظرائهم من قوم لوط؛ في توعدهم بإخراجه وأتباعه (الشريحة المستضعفة في المجتمع) من مجتمعهم صاحب الغلبة والسيطرة على المكان (قريتنا): (لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا)، أو (لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا)، فسادهم الاقتصادي أصبح الآن عقيدة وملة من لا يتبعها ويُقر بها يتوجّب التخلص منه.

مما سبق نخلص إلى أن "قرية+ضمير" في مواضعها المختلفة من القرآن تدل على غلبة الجماعة المتشرذمة في البيئة المنتمية إليها، وتمكّن العطب من خلقها السوية، المؤسس من علاجها. البتر لهذه الجماعة يصبح الآن واجبا، لأنه العلاج الأمثل لمنع استفحال الداء وتمدده لبقية شرائح المجتمع المنتمية إليه هذه الجماعة، وخاصة بعد التجاء شريحة المستضعفين إلى ربهم وطلبهم للنجاة: (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ). في ضوء مسبق، نجد أنّ الضمير (ك/كم/نا) حال إضافته لـ"قرية" يوظف قرآنيًا لتأكيد استفحال الداء الذي قد يكون عقدياً (كما هو حال المكذّبين برسلمهم من الأمم السابقة)؛ أو سيكولوجياً (كما هو حال مثلي قوم لوط)؛ أو اقتصادياً (كما هو حال المفسدين من تجار قوم شعيب).

• القرية: في حال التعريف بـ"الـ"

في حال جاءت "قرية" معرفة بـ(ال)، هنا تكتسب الكلمة، حسب الاستعمال القرآني دلالة جغرافية أكيدة. ما نعنيه هو أن الصياغة "قرية" عند التعريف بـ(ال) يمكن اعتبارها الأصل الذي تفرّع عنه "قرية" في حال الأفراد والتنكير؛ فدلالة المكان تأتي سابقة دائماً على دلالة المكن، وذلك استناداً إلى قاعدة لغوية تراعي "التدرج الدلالي" في دراسة المصطلحات معجمياً، تقريرها، كما يخبرنا مصطفى اليعقوبي في دراسته المعجمية للمصطلح، هو أن سير الدراسة لمعنى مفردة ما في الاستنباط والتصنيف والعرض ينبغي أن يأتي على النهج التالي: المعنى الحسي فالعقلي، المعنى الوضعي فالمجازي، المعنى اللغوي فالاصطلاحي، المعنى الأصلي فالفرعي، والمعنى العام فالخاص (اليقوبي، ٢٠٠٦، ٥٤، ص. ٣٦).

الآيات القرآنية تراعي هذا النهج؛ فنجد "القرية" في هيتها المعرفة بـ"ال" وهويتها الجغرافية ذات معانٍ: حسيّة (فهي المكان المأين المادي الوجود من الجذر اللغوي "ق.ر.و" الدال على الحوض المستقل بمائه عن حوضه المزود له بالماء)؛ ووضعية (بمعنى الرقعة من الأرض المستقلة بهوية مميزة لقاطنيها عن المدينة/متعددة الهويات المتفرعة عنها، وهو المعنى الاصطلاحي). وهذا الأخير هو المعنى العام الذي حصل منه اللغظ في فهم ما تفرّع عن "قرية" من معانٍ مستقلة، أهمل معها اعتبار هيات صياغية وتركيبية وسياقية أخرى للكلمة أضفت عليها فهما خاصاً جعلها مستقلة عن معناها العام:

تركيبية (ال+قرية) = دلالة معجمية (موقع جغرافي ذو خصوصية مستقلة في مكوناته: كمكان ومكين)

في ضوء المعادلة أعلاه نترك للقارئ فهم الآيات التالية، علماً أنّ الشواهد من السياق المخطّط تحتمل ستكون عاملاً مساعداً في الفهم لما نقصده بالاستعمال القرآني لـ"القرية" (في هيئتها المعرفة بـ"ال") ودلالاته الجغرافية المتضمنة دوماً لمستويين من معنى **مكان** محسوس، وهويّة **مكان** مخصصة:

- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (الفرقان: ٤٠).﴾
- ﴿وَأَسْأَلُكُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (الأعراف: ١٦٣).﴾
- ﴿ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ سَعَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) (يوسف).﴾
- ﴿وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (الأنبياء: ٧٥).﴾

منطقياً، مفهوم "القرية" المادي كـ"مكان" يسبق في وجوده ساكنه من "مكين". وهذه المنطقية في العرض تلازم الاستعمال القرآني للكلمة في تركيبها من التعريف والإبدال؛ فنجد الدعوة لجعل قرية بعينها (هذه القرية) مأهولة بالسكان تأتي صريحة بصياغة (ادخلوا/ اسكنوا هذه القرية)، لكنه مكين يوصف أنه ظالم؛ مغير لطبيعة المكان (كبيئة جاذبة للسكن (صالحة) — (فكّلوا منها حيث شئتم رغداً) إلى أخرى مغايرة (فاسدة) — (فبدّل الذين ظلموا قولاً). وهو بهذا الظلم من الإفساد يستحق نزول العذاب عليه، لحصول التطهير الذي به ترجع القرية إلى طبيعتها الأولى من الصلاح. يأتي الطرح لهذا السيناريو الكوني في سورة البقرة ويؤكد عرض آخر مقارب في الأعراف:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَمَّيْذُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) (البقرة).﴾
 - ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَمَّيْذُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٢) (الأعراف).﴾
- مما سبق يتبين أن التوظيف القرآني لتركيبية اسم الإشارة القريب "هذه" وبدلها من الوحدة الصرفية "القرية" دلالة عن مكان من سوف ينزل بهم العذاب:

هذه+(ال)التعريف)+قرية = موقع **لمحكوم عليهم بالهلاك**.

فهو دلالة على جماعة من الناس بينهم قاسم مشترك من رؤية وجودية خاطئة أو ممارسة سلوكية شاذة، خالفوا في ضوءها إذن السكّن الممنوح لهم كشرط لدخولهم القرية: حيث الاتفاق هو أن يكون مقابل ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً﴾ وعداً إلهياً بـ(فكّلوا منها حيث شئتم رغداً)، لكن هذه الجماعة من أهل القرية، الموصوفة قرآنيّاً بالظالمة، نقضت الاتفاق وخالفت شرط الدخول للقرية وسكانها: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، بما جعلها مستحقة لعذاب رباني: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

يُلاحظ في إشارات القرآن لوقوع العذاب على قرية بعينها (بتعبير "هذه القرية") أنها تُسبق بشهادة قاطنين فيها (من أهلها **المستضعفين**) على استثناء فساد شريحة **المتجبرين**، المشتركين معهم في سكنى البقعة الجغرافية المشار إليها بـ"هذه"، وطلبهم الخلاص من ربهم: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (النساء: ٧٥).﴾. وعليه، فيكون اجتماع المكونات الثلاثة لتركيبية جملة العذاب (أهل + هذه + القرية) على ترتيبها هذا، أو في ترتيبها العكسي (هذه + القرية + الظالم أهلها)، مشيراً دائماً إلى مرحلة سابقة مباشرة على نزول العذاب وتعيين المستحقين له على وجه الخصوص. "ف(الظالم) نعت سببي، ولكنه ليس للمتبوع (الاسم السابق عليه) (القرية)؛ إذ ليس الظالم هنا صفةً للقرية، وإنما هو صفةٌ لشريحة من أهلها القاطنين بها، غير أنه لما كانت هذه الشريحة هي السائدة على غيرها من شرائح مجتمع القرية، وصبغت نظام المعيشة فيها برؤيتها الشاذة، جاز أن نقول عن صفة أهل القرية الظالمين إنها صفة للقرية كلها، ومن أجل ذلك يسمى لفظ (الظالم) في هذه الآية نعتاً غير حقيقي، أو نعتاً سببياً." (ابن حسن، ٢٠١٨). وعليه، فالنعت السببي في هذه التركيبية (الظالم أهلها) يفيد وصفاً صريحاً بالظلم لشريحة محددة من أهل قرية مقصودة بعينها استحقاقاً بموجبه، دوناً عن غيرهم من ساكني القرية، عذاباً مهلكاً. وظيفة جملة النعت السببي هنا إذن تحديد الهدف بدقة متناهية للبطورة في القرية التي سينزل

العذاب بأهلها (وليس على القرية بأكملها). بموجب العدالة الإلهية، إذن، يتم تحديد هدف "الضربة الربانية"، ويصبح العذاب حتمياً بعد أن شهد شاهد من أهلها بظلم الشريحة الفاسدة في مجتمعهم. لذلك جاء تبليغ الملائكة لإبراهيم - عليه السلام - بالحكم الرباني القاضي بنزول العذاب على قوم لوط متضمناً في حيثياته شهادة الشهود: ﴿إِنَّا مُهِلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (العنكبوت: ٣١). شهد شاهد من أهل هذه القرية، إذن، على فسادها، وعندها تكون الصياغة "أهل هذه القرية" مشيرة دائماً، في مواضعها المختلفة في القرآن، إلى حتمية وقوع العذاب على أهل القرية الذين تحدّد موقعهم باسم الإشارة القريب (هذه):

أهل+هذه+القرية = مهلكة واقعة

وقد وردت هذه الصياغة في موضعين متتابعين في سورة (العنكبوت): ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهِلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيبِيٍّ وَمَضَىٰ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجُلًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) (العنكبوت).

مما سبق يتضح لنا أنه حيثما بقيت المفردة (الدالة على نفور جزء من كل، وشذوذ مجموعة عن قاعدتهم الأصلية، تحديداً "قرية" فيما يخص موضوع الدراسة هنا) في حالة أفراد وتنكير دلت على أن الفرصة لإصلاح الشاذ ورجوعه إلى قاعدته المتحوّرة عنها إلى ضدها من الصلاح مازالت متاحة وممكنة. لكن، كلما ابتدأ التحديد للنكرة الشاذ بالتمايز والتعريف كلما تقلّصت فرص الإصلاح والنجاة من العذاب، وأصبحت طريقة البتر لمعالجة الخلل هي الأنسب للمحافظة على (الكل-الجماعة-القاعدة) واستمرارها. وفيما يتعلق بـ"قرية"، فتدرجات تعريفها وضحت لنا في ترتيبها التالي: التعريف بالإضاقاة إلى ضمير (قريتك، قريتكم، قريتنا)، التعريف بـ(ال) (القرية)، وقوعها معرّفة بـ(ال) بدلا من اسم الإشارة (هذه القرية)، وقوعها بدلا من اسم إشارة مضافاً لكلمة (أهل) (أهل هذه القرية).

• قرية في حالة التعريف والتثنية (القريتين):

بيّنا أعلاه دلالات "قرية" المفردة في صياغاتها المختلفة من التنكير إلى التعريف، وتراكيبها المتعددة ذات الدلالات المعجمية والاصطلاحية المخصوصة. وينقل البحث إلى القرية في حالة التثنية وجدنا أن القرآن يُثني قرية في موضع واحد فقط: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١). اجتمعت كتب التفسير (الطبري، القرطبي، ابن كثير) على أن المراد بـ"القريتين" هنا هما (مكة والطائف) ثم تجاوزت هذا المعنى الجغرافي إلى تخمين أن الرجلين العظيمين المقصودين في كلٍ منهما هما: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، عمّ أبي جهل (أو، في أقوال آخرين، عتبة بن ربيعة)، من أهل مكة؛ وأبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي (أو، في أقوال آخرين، عمير بن عبد ياليل الثقفي)، من أهل الطائف (الطبري، ٢٠٠١، ج. ٢٠، ص. ٥٨٠-٥٨٤). وهذا الرأي هو ما أخذت به الترجمات الإنجليزية للقرآن،^٨ وذلك رغم ما فيه من سوء فهم لمعنى "القريتين" يحتاج إلى تصويب. وكما يتضح من السياق، فالجدال ليس حول هوية "أحد رجلين"، كما هو رأي المفسرين، في محاولة منهم غير موفّقة للملاءمة بين فهمهم لقريتين على أنها (مكة والمدينة) والرجلين الحجازيين الدائر حول هويتهما جدل المفاضلة والأحقية بشرف الرسالة. في الحقيقة، قراءة متأنية في سياق الكلمة، ومراجعة ظروف رفض مشابهة واجهها رسل سابقون على محمد (ﷺ) من أقوامهم، من شأنها أن تضعنا على مقربة من فهم معنى قريتين بشكل أقرب للصواب من الجغرافي الدارج.

سورة الزخرف متضمنة لعددٍ من قصص الرسل من أولي العزم ممن واجهوا صدوداً من قومهم لسبب مشترك أبرزته السورة هنا على أنه استهزاؤهم بالدعوة أو برسولها، ولذا نُفّتحت السورة بقوله تعالى: ﴿حَم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَا هَٰذَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَتَضْرَبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨)﴾ (الزخرف).

حجة أولئك الرافضين لرسولهم ارتكزت إلى أن دعوته هي نوع من السحر (كما هو الحال مع إبراهيم - عليه السلام - وقومه)؛ أو أن الرسول نفسه ساحر (كما هو حال موسى - عليه السلام - وقومه): ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا كَافِرُونَ﴾ (الزخرف: ٤٩)؛ أو بسبب اختلاف الأحزاب في شأن رسولهم ودعوته المرسل بها (كما هو حال عيسى - عليه السلام - وقومه): ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ (الزخرف: ٦٥). وتضيف السورة إلى أسباب الرفض التي واجهها سيدنا موسى من قومه ضعف مكانته في نظرهم: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ مَا يُكَذِّبُونَ (٥٢) فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُّقْرِئِينَ (٥٣)﴾ (الزخرف).

^٨ انظر مثلاً ترجمة (٢٠٠٠) Pickthall للقرآن.

الرسول الكريم (ﷺ) يواجه من قومه الكافرين جميع ما سبق من أسباب رفض واجهتها دعوة الرسل من قبله: فما أتى به هو السحر في زعمهم، بل هو نفسه ساحر وكاهن وشاعر، ثم هم يحاججون فيه أن: (لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ). في ضوء هكذا رؤية لحيثيات الجدل التي بنى الكافرون عليها رفضهم لدعوة أنبيائهم قبل محمد (ﷺ) ينبغي أن نفهم دلالة "رجلٍ من القرينتين عظيم" من منظور كونها دلالة عرفية لمفهوم عظمة الرجال سادت مجتمع شبه الجزيرة في عصره الجاهلي قبل المبعث النبوي. وفيما رواه عروة بن الزبير عن قصة حاطب بن أبي بلتعة إشارة إلى هذا المعيار. فقد كان ابن أبي بلتعة حديث عهد بالإسلام، لكنه حاول مكاشفة فريش بخطبة الرسول (ﷺ) في سيره إلى مكة ومحاربتهم، وجعل وسيلته في إيصال الخبر إليهم امرأة أخفت كتاب ابن أبي بلتعة في ضفائرها، ثم بانكشف أمر هذه المرأة وإخبارها بخيانة ابن أبي بلتعة للرسول (ﷺ) يستدعيه الرسول (ﷺ) فيقرّ معترفاً له بخطئه، ويقول نادماً: "يا رسول الله، أما والله إني مؤمن بالله وبرسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكنني كنت امرءاً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم" (ابن كثير، ١٩٩١، مج. ٤، ص. ٢٨٣-٢٨٥). ابن أبي بلتعة يعتذر إلى رسول الله بتقرير معيار المهابة الذي ساد المجتمع الجاهلي وهما (الأصل والعشيرة)، ويقرر أنهما ما يكسبان الرجل رفعةً بين قومه، ويفقدهما يكون عرضةً لمذلة وامتهان، بل وابتزاز يناله وولده وأهله جميعاً. هذا المعيار ثنائي القطبين يشير إليه القرآن الكريم في ثنايا عملياته من هدمٍ لمعايير جاهلية بالية، تتناقض ومعايير الدين الجديد، لاستبدالها بمعايير تتوافق ومنظور العقيدة الإسلامية. ففي سورة القلم يذم الله تعالى المتَّصف بأخلاقيات تتنافى ومعيار العبودية لله ومقتضياتها من صفات خيرية، ولو كان متمتعاً بمعيار المهابة الجاهلي من جاه ونفوذ: ﴿وَلَا تُطِغْ كُلُّ خَلْفٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَاءً بِنَمِيمٍ (١١) مَنَاعٍ لِالْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُنُقٍ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَتْ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ (١٤) إِذَا تَنَّتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (١٦) الْقَلَمِ﴾. المال والبنون لم يعودا إذن من معايير التفاضل بين بني البشر مع ظهور البعثة المحمدية. يؤكد ذلك قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَيْنَ شُهُودًا (١٣) وَمَهْدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُزْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) الْمُدَّثِرُ﴾. المقصود بهذه الآيات كما تجمع التفاسير هو الوليد بن المغيرة المخزومي الذي يؤكد الله تعالى أنه، ورغم اجتماع معايير عظمة الجاهلية له من مالٍ ممدود وبنين شهود (المال والولد)، إلا أن ذلك لم يشفع له ليكون من المستحقين لكرامة عند خالقه تمنع عنه عذاب الآخرة؛ لأنه لم ينظر لتلك المعايير كأسباب هداية للحق، فكانت وسائل استدراج إلهية له لمزيد من الضلال والغي.

مما سبق، يمكننا القول إن معيار عظمة الرجل المستحق للنبوة، من وجهة نظر مجتمع الجاهلية الراض للرسالة المحمدية، هو اجتماع المال والعشيرة. وعليه، فالقرينتان المقصودتان في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ هما قطبا هذا المعيار لعظمة الرجال في العرف الجاهلي، ويكون تأويل معنى الآية: لولا أنزل القرآن على رجل عظيم من جهتي الجاه والنفوذ. أما الجاه فهو متحقق للرسول (ﷺ) من جهة النسب؛ حيث إن شجرة نسبه (ﷺ) هي الأكثر عراقية بين أنساب العرب، فهو الأفضل أرومة بين قومه. لكن سيرة الرسول (ﷺ) والتاريخ يعلماننا أن الدعوة نزلت عليه (ﷺ) وهو منقطع الولد من الذكور (بعد وفاتهم صغارا) لما يبلغوا الحلم (بعد)، كما أن أوائل المتبعين له كان غالبيتهم من المستضعفين من أهل مكة (اجتماعياً واقتصادياً)، وهو ما يعني أن الرسول (ﷺ) لم يكن متمتعاً بنفوذ "عظيم" بمقاييس العرب في عصر ما قبل البعثة. كانت نظرة مشركي مكة، إذن، للرسول (ﷺ) أنه صاحب جاه - لا جدال فيه - لكنه لم يكن من أصحاب النفوذ. وفي اعتقادهم أن من يستحق أن يكون رسولاً هو من يتوافر له قطبا عظمة (بمعاييرهم): الجاه والنفوذ. لذا جاء توضيحهم لأسباب رفضهم لدعوته بقولهم: (لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ). "القرينتين" إذن تفهم في سياقها هنا على أنها مجتمع القوة المتأتية للرجل من جهتي الجاه (الشرف الحاصل بالنسب من قرابة الأذنين: الخوولة والعمومة) والنفوذ (الشرف الحاصل بالكسب من المال والاتباع). وهنا نشير إلى أن هذه المثبتات اللفظية مزدوجة المعاني هي مما يمتاز به المعجم العربي. فمما حفظته لنا بعض المقولات المأثورة عنهم: (أهلك الرجل الأحمران - الخمر واللحم)؛ (وأهلك النساء الأصفران - الذهب والزعفران)؛ (أتى عليه العصران - الغداة والعشي) و(ذهب منه الأطيبان - الشحم والشباب). وفيما رواه الحافظ البيهقي عن امتداح عمرو بن الأهتم للزبير بن العوام - حين سأله الرسول (ﷺ) عن الأخير - بقوله: "مطاع في أذنيه،" ثم ذمه له بإبدال هذه المنقبة بمثلية وقوله فيه أنه "أحمق الأب، ليثم الخال"، (ابن كثير، ١٩٩١، مج. ٥، ص. ٤٤-٤٥). ما يدل على أن الأذنين في موضعهما هنا تعني القرابة من جهة الخوولة والعمومة، وهما المكون الأول من مفهوم القرينتين التي تجمع إلى الأذنين (وهي القرابة من خوولة وعمومة) النفوذ (وهي السلطة من مال واتباع). وما يزيد من تأكيد هذا الفهم لدلالة "القرينتين" هو سياقها القرآني: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحَّمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقُوطًا مِّنَ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيَا يَنْظُرُونَ (٣٣) (الزحرف)﴾.

القرآن هنا في مجادلته للمشركين وأسباب رفضهم دعوة الرسول (ﷺ) يوضح لهم سنة الله في كونه فيما يخص مسألة القوم المستضعفين من أتباع الرسول (ﷺ). لذا تأتي الآيات في مناقشة مسألة الطبقية التي كانت مدعاة لرفضهم الإسلام محاجة بأن: (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا). فهي مسألة اقتصادية اجتماعية بحته، وضرورة لمجتمع صحي منتج فاعل. القرآن يوضح أن الطبقة هي مفهوم أساسي في بنية أي مجتمع سليم؛ لذا لا ينبغي أن تؤخذ حجة في معارضة مسألة عقدية. والقرآن في سياق تقرير هذه الحقيقة يؤكد على مبدأ الأفضلية من منظور إنساني لا طبقي؛ فالله يخبرنا بأنه لولا خشية الفتنة وأن الناس قد يغيرهم ما يرونه من علو منزلة كافر اجتماعياً واقتصادياً لجعل لكل فرد، من منحرفي العقيدة، بيوتا فارهاة بسقفٍ متطاولة من فضة ومعارج تؤكد تفوقهم الطبقي؛ فتكون معلماً لهم على تميزهم عن غيرهم عقدياً، لكنها ستقيمهم لا عزة لهم عند خالقهم بسبب كفرهم. هذا الطرح القرآني لموضوع الطبقة في معرض مجادلة أسباب رفض الدعوة المحمدية بوجه بقوة دفة الفهم لقربتين على أنهما معياران (من جاه ونفوذ) لقياس عظمة الرجل، في اصطلاح عرب الجاهلية، وهذا يبرز توافقاً مع مضمون السياق القرآني للآية يفترقه الفهم التقليدي لقربتين؛ باعتبارهما البلديتين الشهيرتين (مكة والطائف).

بعد تمام القول فيما يخص توضيح دلالة قرية، تنكيراً وتعريفاً، أفراداً وتثنية، بقي أن نبحث في دلالاتها بحسب الاستخدام القرآني لتراكيها في حال الجمع.

• قرية في حال الجمع:

ورد جمع "قرية" على صيغة النكرة (قرى)؛ ومعرفه بـ(ال) = (القرى)؛ كما وردت في حالتها المعروفة هذه بدلاً من اسم الإشارة البعيد (تلك) = (تلك القرى)؛ ووقعت أيضاً مضافة لكلمة (أهل) = (أهل القرى)؛ ومضافة للفظ (أم) = (أم القرى)؛ وأخيراً متبوعة بنعت سببي (القرى .. الظالم أهلها). القاسم المشترك في دلالات الجمع هذه على اختلاف الصياغات والتركيبات هو الدلالة على المكان، مع مراعاة التفاوت في طبيعة وجوده المادية والمعنوية، وطبيعة ساكنيه.

قرى: جمع النكرة:

فيما يخص "قرية" حال وقوعها جمع نكرة (قرى) نجد أن دلالاته تأتي للإشارة إلى الطبيعة المادية الخالصة للكلمة: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ (الحشر: ١٤)﴾. في تفسيره لقوله تعالى: (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ) يذكر الطبري: "يقول جل ثناؤه: [لا يقاتلكم هؤلاء اليهود بني النضير مجتمعين إلا في قرى محصنة بالحصون، لا يبرزون لكم بالبراز، (أو من وراء جُدُرٍ) يقول: أو من خلف حيطان" (٢٠١، ج. ٢٢، ص. ٥٣٧). يتحدث القرآن هنا عن العداوة الشديدة التي يكفها اليهود للمسلمين وعادتهم في قتالهم الدارجة أبداً على الاختباء حول ما يتوافر لهم من تحصينات؛ فهي في أفضل حالاتها من بين حصون منيعة (ثلاثية الأبعاد) تحيطهم من كل جانب؛ وفي أدنى حالاتها من وراء جُدُرٍ (ذات بعدين أفقي وعمودي فقط). فدلالة الطبيعة المادية الصرفة للفظ "قرى" تخدم السياق وتعمق من معنى "جُبُن" اليهود في قتالهم للمسلمين. وهو المعنى الذي يريد القرآن طرحه وساعد على إيصاله توظيف الطبيعة المادية لـ"قرى" هنا.

في موضع آخر من القرآن، تُوظف "قرى" بتأثير نفس الدلالة مادية الوجود، حيث يقول تعالى، في معرض الحديث عن سيل العرم الذي أصاب سبأ لكفرانهم بنعم الله عليهم: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَبْرًا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ (سبأ: ١٨)﴾. في تفسير القرطبي للآية، يقول: قرى ظاهرة قال ابن عباس: يريد بين المدينة والشام. وقال قتادة: معنى (ظاهرة): متصلة على طريق؛ يغدون فيقولون في قرية وبروحون فيبيتون في قرية. وقيل: كان على كل ميل قرية بسوق، وهو سبب أمن الطريق. قال الحسن: كانت المرأة تخرج معها مغزلهما وعلى رأسها مكتلها ثم تلتفي بمغزلهما فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ مكتلها من كل الثمار، فكان ما بين الشام واليمن كذلك. وقيل (ظاهرة) أي مرتفعة، قاله المبرد. وقيل: إنما قيل لها (ظاهرة) لظهورها، أي إذا خرجت عن هذه ظهرت لك الأخرى، فكانت قرى ظاهرة أي معروفة، يقال: هذا أمر ظاهر أي معروف (٢٠٦، ج. ١٧، ص. ٢٩٨-٢٩٩).

بخلاف ما فسّر به القرطبي المقصود "القرى المباركة"، في هذه الآية، معللاً أنها الشام، فبتطبيق فهم جغرافي معاصر للصفة والموصوف المذكورين في هذه الآية، نجد أن تعريف "قرى ظاهرة" يتفق أن يكون تلك الأراضي المرتفعة ما بين الحجاز واليمن، المانعة لتدفق السيل من سبأ (اليمن) إلى المبارك من الأراضي القريبة منها؛ تحديداً مكة والمدينة (الحجاز). "قرى ظاهرة" هي إذن مرتفعات عسير وما جاورها من سلاسل جبلية مأهولة بالسكان. واقعة بين البلدين (المنكوبة والمباركة). فكان التعبير لهذه المرتفعات الأرضية بلائمه تماماً توظيف (قرى)، ذات الطبيعة المادية الصرفية في هيئتها جمع النكرة، التي قوّى منها ودعمها التوصيف بـ"ظاهرة" لتأكيد معنى التحصين الإلهي للقرى المباركة من خلال هذا التكوين الجغرافي المميز لها.

القرى: جمع المعرفة:

إذا كانت "قرى" في حالة الجمع والتنكير لها دلالة وجود حقيقي مُعين، فإن الجمع المعرفة منها "القرى"، يُستخدم بدلالات وجودها المادي والمعنوي على السواء: ذلك أن الآيات الواردة فيها "القرى" تحمل في سياقها دلالة معنوية "القرى" الهالكة التي لم يعد لها وجود حقيقي على أرض الواقع (حصيد) أو أضحيت مجرد قصص و (أنباء) للعلظة لقرى حاضرة الوجود (قائم): ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (هود: ١٠٠)﴾. هذا التركيب لـ"القرى" يستخدم في إشارة إلى عناصر بشرية يربطها مصير مشترك، بسبب قاسم إيديولوجي يجمعهم، رغم اختلاف جغرافيتهم وبؤر تجمُعهم. فالكلمة تجمع في طبيعتها اللفظية بين مكان، بدلالاته المادية لمواقع جغرافية متعددة غير معيّنة على وجه التحديد؛ ومكين، متفرق وجوده في هذه البؤر الجغرافية المتعددة، لكن يربطه ويجمعه توجّهات إيديولوجية وعلاقات سلوكية مشتركة، استحقَّ بسببه مصيراً مشتركاً. في ضوء هذا الاستخدام القرآني المتميز لـ"القرى" نفهم التالي من الآيات:

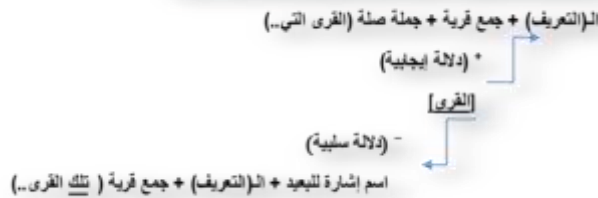
- ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ (هود: ١٠٢)﴾.
- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُؤَلِّقَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِيهَا مُصْلِحُونَ (هود: ١١٧)﴾.
- ﴿ذَلِكَ أَنْ لِمَ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِيهَا غَافِلُونَ (الأنعام: ١٣١)﴾.
- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا (القصص: ٥٩)﴾.
- ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلِيهَا ظَالِمُونَ (القصص: ٥٩)﴾.
- ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ (الأحقاف: ٢٧)﴾.
- ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّرِيرَ سِرًّا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ (سبا: ١٨)﴾.

هنا أيضاً دلالة فيما يخص إيجابية السياق أو سلبية وبنية الكلمة المعبر بها. فـ"القرى" في هكذا صياغة غالباً ما تستخدم في سياق من السلبية إلا إذا تم تداركها بجملة صلة تزيل عنها المضمون السلبي المرتبط بلفظها في الأذهان، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَاهِرَةً﴾. فجملة الصلة (التي باركنا حولها) تضح دماء جديدة في الكلمة تمحو دلالتها السلبية في الأذهان (حال صياغتها على جمع معرفة) بتصوّر إيجابي مضاد لما رسخ في الذهن عنها. وعلى الضد من جملة الصلة ذات الدلالة الإيجابية عند استخدامها مع (القرى)، فإن وقوع الكلمة بدلاً من اسم الإشارة للبعيد (تلك القرى) يضيف بدلالات سلبية على الكلمة، أينما استخدمت في القرآن:

- ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهَلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمِثْلِهِمْ مَوْعِدًا (الكهف: ٥٩)﴾.
- ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ۗ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ۗ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) (الأعراف)﴾.

"تلك القرى" يتم توظيف سياقها السلبي في تأكيد انعدام وجود مادي لها مع بقاء المعنوي بصفته السلبية (مجرد ذكرى غابرين للعلظة والعبرة). وهنا نشير إلى أن استراتيجية السلبية والإيجابية للسياق الموظفة بها (القرى) يتخذ مسارا معاكسا لسياق لفظها المفردة "قرية". فلما كانت المفردة ذات وجود معنوي في حالتها النكرة تم توظيفها في سياق إيجابي (بما أضفاه من فسحة أمل ممنوحة للشريحة الشاذة للرجوع للحق)، لكن بتعزيز درجة المعرفة على المفردة (إضافة للضمير، تعريب بـ(ال...إلخ)) يتحقق الوجود المادي للكلمة بما يستدعي سياقاً سلبياً في توظيفها (انظر الرسم التوضيحي ١).

رسم توضيحي ١: اكتساب (القرى) لدلالة إيجابية / سلبية باعتبار سياقها من جملة صلة / بدل:



• قرية/ قرى في صياغتها مع (أهل/ أصحاب/ أم):

إذا كان فهنا لقرية، في صياغتها النكرة المفردة انتهى إلى أنها "الشريحة من مجتمع يجمعها قاسم مشترك"، فهي عند إضافتها لأهل "أهل قرية" يكون قاسمها المشترك تحديداً هو صفة "البخل". "قرية" المضافة إلى "أهل" وردت في موضع واحد من القرآن هو قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَابْتَدَأُوا أَنْ يُصَوِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ

عَلَيْهِ أَجْرًا (الكهف: ٧٧) ﴿. "أهل قرية" هنا يخبر عنهم القرآن أنهم من امتنعوا عن أن يضيفوا موسى - عليه السلام - والعبد الصالح. الامتناع عن "قرى الضيف" توصيفه في العربية هو "البخل". هذا الفهم لتركيب هذه الوحدة المعجمية ينقله لنا ابن كثير عن ابن سيرين في تفسير الآية، فيقول: "حتى إذا أتيا أهل قرية لثاماً؛ أي بخلاء" (ابن كثير، ١٩٩٩، ج. ٥، ١٨٤). القرطبي أيضاً ينقل لنا رأي ابن سيرين في تعريف أهل قرية أنهم "بخلاء"، لكنه يظل غير مقتنع فينقل لنا آراء آخرين من المفسرين لها على أنها "بلدة"، احتاروا في تحديد موقعها الجغرافي، فيقول: "قيل: أنطاكية، وقيل: بجزيرة الأندلس؛ روي ذلك عن أبي هريرة وغيره. ويذكر أنها الجزيرة الخضراء، وقالت فرقة: هي باجروان، وهي بناحية أذربيجان، وحكى السهيلي وقال: إنها بركة. الثعلبي: هي قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة، واليهما تُنسب النصراري؛ وهذا كله بحسب الخلاف في أي ناحية من الأرض كانت قصة موسى والله أعلم بحقيقة ذلك (٢٠٠٦، ج. ١٣، ص. ٣٣٤-٣٣٥). دون الدخول في تفصيل اللجاجة الحاصلة من محاولة إقحام فهم جغرافي لدلالة "قرية" هنا على أنها "بلدة"، نحن نفهم الدلالة المعجمية لـ "أهل قرية" على أنها جماعة البخلاء الذين غلبوا على شريحة المجتمع الذي زاره موسى والعبد الصالح ولم يكرموا ضيافتهم، هي إذن في صياغتها هذه تستقي معناها من الأصل المعجمي قري: أي الإحسان إلى الضيف، وهو أحد مفاهيمها الذي أقرته المعاجم العربية، وهو أيضاً داخلٌ في اعتبار الفهم لـ "الشريحة الغالبة على مجتمع". هذا الفهم يتسق وتتما قصة التي تخبر أن العبد الصالح بنى جداراً في "مدينتهم" دون أجره عليه، لعلمه بتأصل صفة البخل في نفوسهم وتمكثها منهم، لذا فهو يعلم مقدماً أنهم لن يعطوه أجرًا عليه حتى لو سألهم (كما طلب منه موسى - عليه السلام - أن يفعل)، فكان غرضه من بناء الجدار هو منع فائدة لهم متمثلة في حفظ كنز تركه أبٌ صالح (ليس من شريحة البخلاء) لغلامين يتيمين عاشا في المدينة التي ضمتهما مع من وُصفوا بأنهم أهل قرية (جماعة بخلاء): ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (الكهف: ٨٢)﴾. الضمير إذن في (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا) يعود على "المدينة" التي حددها القرآن صراحة في الآية (٨٢) المفسرة لسبب بنائه الجدار فيها، وليس على "قرية" المذكورة في الآية (٧٧). الملاحظ أن القرآن يستعمل "أهل" مع المفرد المعرفة "القرية" حال وقوع الأخيرة بدلا من اسم إشارة، وقرئنا أعلاه أن المعادلة اللغوية التالية تفيد دائما دلالات سلبية:

أهل + هذه + القرية = القرية + الظالم + أهلها = (الشريحة الفاسدة) = (مهلكة و اقععة).

فهي تفيد دائما تحديدا هدف الضربة الرئانية على شريحة ظالمة (قرية) تسكن بؤرة جغرافية محددة (القرية). كما في الآيات التالية: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾؛ (إِنَّا مَهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)؛ (إِنَّا مَرْسُلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِّنَ السَّمَاءِ). في الاستخدام القرآني لـ "أهل" مع الجمع "القرى" تستمر الدلالة السلبية لجملتها في تركيبها من الإضافة والنعت السببي، كما في الآيات التالية:

- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟ (الأعراف: ٩٩)﴾
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَوَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١١١) (يوسف)﴾
- ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ (الحشر: ٧٧)﴾

"أهل القرى" في صياغتها من المضاف والمضاف إليه تستخدم للإشارة إلى مجموعة ضعيفة مسلوحة من أسباب قوتها من حياة أو مال: فهم إمَّا أموات (مجرد قصص للعبارة)؛ أو أحياء (من أقوام مهزومة ذليلة لا ناصر لها). وبتكثيف الإشارة إليهم (في صياغتهم من جملة النعت السببي (القرى..أهلها)) تنتفي عنهم إشارة الحضور (قائم الوجود، المغلوب على أمره) لتغلب عليهم إشارة الغياب (منعدم الوجود، ذي الصفة الوعظية):

- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُبْلِكُ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (القصص: ٥٩)﴾
- ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُم آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُبْلِكُ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) (الأنعام)﴾

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُنْزِلَ الْفُرْقَانَ إِلَّا أَنْزَلْنَاهُ لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ (هود: ١١٧)﴾.

كما توضح الآيات أعلاه، فوقع "أهل" في جملة نعت سببي مع "القرى" يُطرح دائما في إطار جملة الوعظ؛ فهي تتضمن إشارات إلى أمم هالكة استحقوا العذاب بسبب ضلال صريح (عن قصد ووعي وإرادة كاملة). فالجزم ارتكب "عن سبق إصرار وترصد"، إن جاز لنا استخدام هذا المصطلح الجنائي، وهو ما يؤكد العدالة الإلهية التي تنقض الحكم بالهلاك في حالة "الغفلة"، وتجعله منكراً في حال غلبة "الإصلاح" على فساد الشريحة المجرمة. وعليه، فنسبة نزول عذاب إليهم على بؤر فاسدة هي الثلث فقط: لأن في ثلثي الحالات من الفساد (الحاصل نتيجة غفلة أو مع وجود مصلحين يأخذون بيد الظالمين ويكفونهم عن ظلمهم) ينتفي وقوع الهلاك. وقوع الهلاك مرتبط حصوله إذن بحالة من التعمد والوعي التام بارتكابه، يوافقها غلبة وقوة غاشمة من قبل المفسدين تكبح محاولات الإصلاح وتقمعها بعنف.

لم يبق لنا من التراكيب الجُمليّة لـ"القرى" سوى معالجتها حال اقترانها بـ"أم". وهي ترد على صياغتين نحويتين من الإضافة والنعت السببي. أما في حالة الإضافة (أم+ القرى) فقد أفردت دلالة هذه التركيبة لتعني على الدوام، حيثما وردت في القرآن الرقعة الجغرافية المباركة (مكة المكرمة)، والآيات الواردة فيها هي:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (الأنعام: ٩٢)﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (الشورى: ٧)﴾.

تركيبة "أم القرى" في صياغتها من المضاف والمضاف إليه ذات دلالة إيجابية حيثما وجدت في القرآن؛ لأنها أفردت للدلالة على البلدة المباركة مكة المكرمة (المنطقة الجغرافية محدّدة المعالم الواقعة في المنطقة الغربية من جزيرة العرب المعروفة بالحجاز). وفي أسباب هذا الإفراد لمكة هذه الكنية يقول شحرور: سمي التنزيل الحكيم مكة المكرمة بأم القرى لأنها استقرت على نشاط ديني أحادي من عهد إبراهيم إلى يومنا هذا وإلى قيام الساعة، والمتمثل في مناسك الحج والعمرة. وهو سلوك يتوحد فيه كل من يقصدها سواء في اللباس أو السلوك الشعائري. وعليه لا يمكن لأحد أن ينكر أن مكة المكرمة، بمفهوم التنزيل الحكيم للقرية، هي أم القرى لأن مظاهر التغير غير متاحة فيها إلا بما يسمح بخدمة الحجاج والمعتمرين فهي منطقة دينية شعائرية بكل المقاييس ولا يمكن أن تكون غير ذلك لأن الله اختارها أن تكون أحادية لذا سميت أم القرى. ولأن الأحادية فيها قديمة منذ عهد إبراهيم إلى اليوم، ولأنه لا يوجد أحادية تعيش إلى الآن منذ ذلك الوقت، فإن أم القرى هي الوحيدة التي لا تهلك لأنها الوحيدة التي لا يسري عليها قانون الهلاك، ولهذا السبب تحديدا لم يقم النبي (ص) بجعلها عاصمة لدولته لأنها لا تصلح لأن تكون عاصمة لدولة مدنية أراد النبي أن يبينها وفق الأسس التي جاءت في التنزيل الحكيم (٢٠١٨).

بقي لنا الإشارة إلى أن ورود تركيبة (القرى + أم) في جملة نعت سببي يحمل دائما دلالة سلبية؛ لأن الدلالة تشير إلى القرى الهالكة المعذبة من الأمم السابقة، تمييزاً لها عن المباركة (أم القرى):

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبِئْسَ لِكَفْرِهُمْ تَرْجِيحًا لِمَنْ تَسْكُنُ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ تَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلِهَا ظَالِمُونَ (القصص: ٥٩)﴾.

وهذا يكشف عن الوظيفة التشريعية التي تخدمها التركيبات النحوية، بحسب الاستخدام القرآني لها، تميز بها بين المبارك والمهلك من القرى.

لم يبق لنا من الصياغات الوارد عليها "قرية" عند دخول المورفيم المقيّد (ال) عليها سوى تركيبة (أصحاب القرية): ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (يس: ١٣)﴾. وبمعاني استخدامات "أصحاب" في القرآن، نجد أنها ترد دائما مضافة لمادة لغوية ذات صفة وجودية مادية (لها كتلة أو اتجاه): أصحاب (النار، الجنة، الجحيم، السعير، الأيكة، الرس، الأخدود، الحوت، الفيل، الشمال، اليمين، المشأمة، الميمنة... إلخ).^٩ بناءً عليه، فأصحاب القرية هنا إشارة لمن سكنوا قرية لها وجود مكاني وحدود جغرافية مخصصة. وفي تعيين القرية ينقل الطبري عن الرواة أن يذكر: "أن عيسى ابن مريم بعث رجلين من الحواريين إلى أنطاكية -مدينة بالروم- فكذبوهما فأعزهما بثالث" (٢٠٠١، ج. ١٩، ص. ٤١٤)، وينقل الطبري أيضاً عن آخر قوله: كان بمدينة أنطاكية، فرعون من

^٩ انظر حصر الآيات التي وردت فيها كلمة "أصحاب" في الموقع الإلكتروني: المعاني لكل رسم معنى. (٢٠١٠). الرابط الإلكتروني:

<https://www.almaany.com/quran-b/%D8%A3%D9%8E%D8%B5%D9%92%D8%AD%D9%8E%D8%A7%D8%A8%D9%8C/>

[الدخول: ٥ ديسمبر ٢٠١٨].

الفرعنة يقال له أبطيحس بن أبطيحس يعبد الأصنام، صاحب شرك، فبعث الله المرسلين، وهم ثلاثة: صادق، ومصدوق، وسلوم، فقدم إليه وإلى أهل مدينته مهم اثنان فكذبوهما، ثم عزز الله بآلث، فلما دعته الرسل ونادته بأمر الله، وصدعت بالذي أمرت به، وعابت دينه، وما هم عليه، قال لهم ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يس: ١٨) ﴿٢٠٠١﴾، ج. ١٩، ص. ٤١٤.

يبقى الفيصل بين الاستعمال القرآني لـ"أهل" و"أصحاب" في مواضعهما المختلفة من الآيات هو نوعية العلاقة الرابطة بينهما وبين المضاف إليهما—لحظة نشوئها وتكوئها. ولو أردنا اطمئناننا لهذا المعنى فلنا أن نأخذ الاستخدام القرآني لكلمة (أهل) في قصة نوح عليه السلام مع ابنه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠) ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَهُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرِقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْبِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَخْكُمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) (هود).

في محاولة إيجاد مخرج لهذا التوصيف لابن نوح المثبتة بنوثة لنوح - عليه السلام - في ابتداء الآيات والمنتهية في آخرها، حاول بعض الشارحين للآية الادعاء أنه كان "ابن زنى" من نوح - عليه السلام - أو أنه كان ربيبه (ابن امرأته)، وهو الرأي الذي خطأً أوله ابن كثير واتفق مع ثانيه، حيث يقول في تفسير الآية: وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئه من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زنيته، ويحكي القول بأنه ليس بابنه، وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد والحسن وعبيد بن عمير وأبي جعفر الباقر وابن جريج، واحتج بعضهم بقوله: إنه عمل غير صالح، وبقوله: فخانتاهما [التحريم: ١٠]، فممن قاله الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين. وبعضهم يقول: كان ابن امرأته. وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن، أو أراد أنه نسب إليه مجازاً، لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم (١٩٩٩، ج. ٤، ص. ٣٢٦).

اللغظ في الفهم لصفة ابن نوح هنا قائم على عدم استيعاب للتوظيف القرآني لدلالة الكلمة: كوحدة معجمية يرتبط استخدامها بنظمها في سياق جملتها.

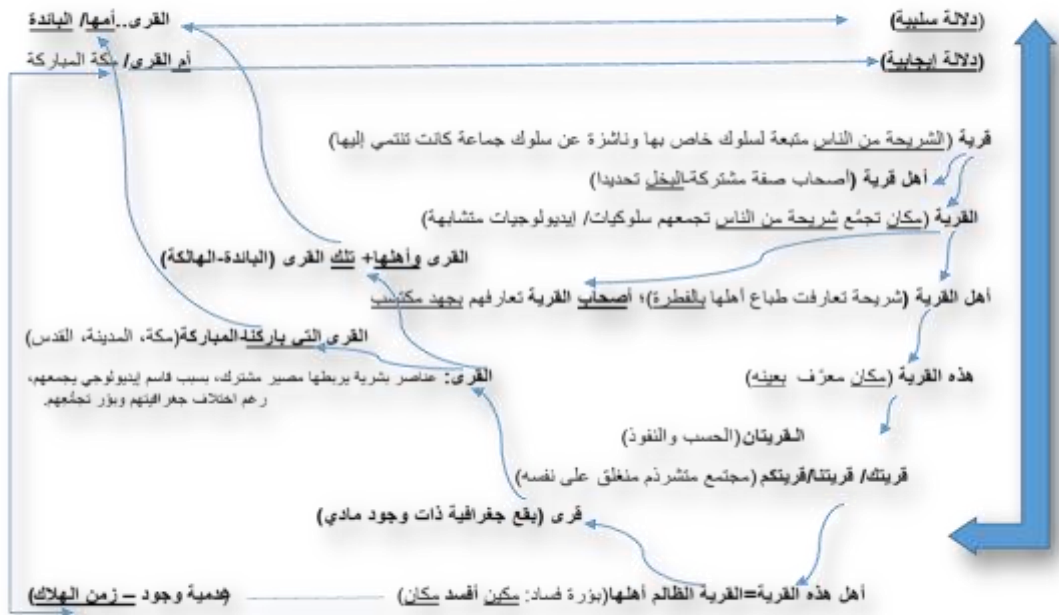
يتوعد الله سبحانه وتعالى قوم نوح بالطوفان، ويعد نبيّه نوح - عليه السلام - بأنه تعالى سينجيّه وأهله، إلا من سبق عليه القول. ويقع الطوفان ويغرق ابن نوح، فيتوجه إلى الله في أدب الأنبياء متسائلاً عن تحقيق الوعد الإلهي: (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَخْكُمُ الْحَاكِمِينَ)، فيأتيه الجواب: (يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ). وعد الله قبل وقوع الطوفان جاء بصيغة (أهلك إلا من سبق)، فابن نوح حال حياته هو من "أهل" نوح، بما هو قائم بينهما من رباط الدم، لكنه من الذين وقع عليهم استثناء النجاة من الطوفان. وبانقطاع الرباط المادي بين الابن والأب، حال موت الأول وانتفاء صلة الدم بعد غرقه وفناء جسده، يتجرد من هويته المادية كـ"ابن لنوح" (ليس من أهلك) ويكتسب صفة وجود تجريدي تام (عملٌ غير صالح). هو بعد موته، وانتفاء الطبيعة المادية لوجوده، تنتهي صلته بنبي الله: فلا تتلاقى طبيعة الوجود التجريدي للابن (عمل غير صالح) مع طبيعة الأب (عمل صالح). ما يعني أن الحياة، ذات الوجود المادي، يتحقق في ظلها معنى "أهل" بماديتها المغلّبة لصلة الدم على الاختلاف العقدي بين الأب وابنه (فهو من أهله حال حياته)، أما الموت، فيضفي على "أهل" طبيعة معنوية تنتفي في ظلها صلة الدم بين الأب وابنه وتتغلب الصلة العقدية (فيصبح ليس من أهله بعد غرقه). في ضوء هذا التمايز للاستخدام القرآني لكلمة "أهل" يُفهم إذن مراعاة القرآن لمفهوم الصلة الجينية في اختياره لكلمة "أهل". فالعبارات الدالة على انتماء بين شيتين بالدم أو بالصلة الجغرافية أو بالتوافق في الطباع والإيديولوجيا تستخدم معها كلمة "أهل". أما العبارات الدالة على علاقة اكتساب بين شيتين نتيجة جهد وتحصيل فُتستخدم في إنشائها لغويا "أصحاب". وهو ما يدل على دقة الاختيار والتوظيف للمفردات القرآنية في مواضعها. لذا نجد الآيات الوارد فيها إشارة إلى هوية ساكني "الجنة" أو "النار" تستخدم كلمة "أصحاب" على الدوام، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْقَائِمُونَ﴾ (الحشر: ٢٠). تأويل ذلك يرجع إلى "أصحاب" هذين المأويين الأخرويين يتم تحصيلهما بصفة تتم حال الإقامة في الحياة الدنيا: يتمكّن فيها مشرّ من تحصيل مسكن له في الجنة، بينما يُخفق آخر فيكون مصيره إلى النار. الإشارة إلى هذه الصفة الأخروية جاء صريحاً في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعُودًا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١). بناءً على مفهوم هذه الصفة الربانية، تأتي لفظة "جنة" مضافة دائماً لأصحاب، وليس

أهل، في كل مواضع التعريف بهوية ساكنيها الواردة في القرآن. وهذه المنهجية في الاستخدام مطبقة أيضاً على لفظة "النار" عدا في موضع واحد فقط نجد فيه استخدام: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص: ٦٤). فساكنو النار هم مستحقون لأن يكونوا من أصحابها، باعتبار مفهوم الصفقة الخاسرة، وهم أيضاً من أهلها لغلبة الطبيعة النارية على عناصرهم الموافقة لطبيعة الغاوي لهم بدخولها (الشیطان): ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فِيمَا أَعْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا تَبُيِّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لِّبَشَرٍ لِّبَعْضِكُمْ مِّنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) (الأعراف)﴾.

الخاتمة

قال تعالى: ﴿وما يُنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾، هذا ما ينبغي أبداً وضعه في الاعتبار عند دراسة أي القرآن الكريم. النظم القرآني مُعْجَز من أوجه متعددة: لغوية وعلمية ونُبوئية، وإعجازه هذا لا يتبين من طرقٍ لا منطقية في تناوله بل من تطبيقٍ للمنطقي والعلمي والمنهجي من النظريات في فهم آياته. الدراسة الحالية وطّقت منهجية معجمية ذات أبعاد سياقية تفهم في ضوءها ليكسيم "ق.ر.و" في مواضعه المتعددة من القرآن الكريم، وخُصت إلى أن الاستخدام القرآني لـ"قرية"، التي كثر حول معناها الجدل، منبثق من الأصل اللغوي للجذر المعجمي "ق.ر.و"، ومتفرغٌ في دلالاته الاصطلاحية إلى معانٍ متعددة: يحكمها كينونة معينة للهيئة المتشكّل فيها جملة الآيات القرآنية المتضمّنة للفظ "قرية" وكذلك سياقها المنتظمة فيه: فهي في مواضع تحمل دلالة مكين فقط، وأخرى مكانية فقط، وثالثة تحمل دلالة لمكان ومكين معاً، وقد تزيد على دلالاتها تلك مفاهيم زمانية أو سمات وجودية، وهكذا تتفاوت "قرية" في معانيها بلطافة ودقة متناهية في تحديد مراد جملتها؛ بحيث لا يُشكّل فهمها في آية ما على فهمها لتكيفية جُمليّة أخرى متضمّنة لذات المفردة في آية أخرى، الرسم التوضيحي (٢) أدناه يشير باختصار لتعددية تلك المعاني:

رسم توضيحي 2: دلالات قرية في سياقاتها وتراكيبها في سياقها القرآني



المراجع:

أولاً: المراجع العربية:

١. البوشخي، ش. (٢٠٠٢). نظرات في المصطلح والمنهج. المغرب. فاس: مطبعة أنفو برانت. رابط إلكتروني: <https://archive.org/details/NadaratAlbouchikhi/page/n1>
٢. جيرارتنس، د. (٢٠١٢). نظريات علم الدلالة المعجمي. ترجمة: فاطمة الشهري وآخرون، مراجعة وتقديم: محمد العيد مصر، القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي.
٣. ابن حسن. أ. (٢٠١٨). "النعمة السببي والحقيقي". منتدى علمي إلكتروني. [شبكة الألوكة الأدبية واللغوية]. رابط إلكتروني:

https://www.alukah.net/literature_language/0/129054/#ixzz5hkMXog47

٤. شحرور، م. (١٩٩٤). الدولة والمجتمع. سوريا. دمشق: الأهالي للنشر والتوزيع.
٥. شحرور، م. (٢٠١٨). صفحة الفيس بوك الرسمية للمفكر الإسلامي محمد شحرور. [فيس بوك]. الرابط الإلكتروني: <https://www.facebook.com/Dr.Mohammad.Shahrour/posts/1773415609441898>
٦. الطبري، م. (٢٠٠١). تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن. (مج. ٤؛ ١٩؛ ٢٠؛ ٢٢؛ ٢٣، ط. ١). (تحقيق: عبد الله عبد المحسن السنوسي). مصر، الجيزة: مؤسسة هجر للطباعة والنشر والتوزيع. كتاب إلكتروني: <https://ia802500.us.archive.org/18/items/WAQ59561/taftabry23.pdf>
٧. عطية، ل. ع. (١٩٧١). المصاحبة المعجمية: المفهوم والأنماط والوظائف بين الموروث العربي والمنجز اللساني. لبنان، بيروت: دار الكتب العلمية.
٨. الفراهيدي، خ. (٢٠٠٣). كتاب العين مرتباً على حروف المعجم. (ج. ٣، ط. ١). (تحقيق: عبد الحميد هندواي). لبنان، بيروت: دار الكتب العلمية. رابط إلكتروني: <https://archive.org/stream/FP77332/kamhm3#page/n383/mode/2up>
٩. القرطبي، م. (٢٠٠٦). الجامع لأحكام القرآن والمبين فيما تضمنه من أي الفرقان. (مج. ١٣؛ ١٤؛ ١٧؛ ٢١، ط. ١). (تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي & محمد عرقسوسي، ماهر الحنوش). لبنان، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع. كتاب إلكتروني: https://ia802904.us.archive.org/8/items/waq73651/21_73671.pdf
١٠. ابن كثير، إ. (١٩٩٩). تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير). (مج. ٤؛ ٥؛ ٨، ط. ٢). (تحقيق: سامي بن محمد السلامة). المملكة العربية السعودية، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع. <https://waqfeya.com/book.php?bid=1696>
١١. ابن كثير، أ. (١٩٩١). البداية والنهاية. (مج. ٥؛ ٤). لبنان، بيروت: مكتبة المعارف.
١٢. الكيال، ع. م. (٢٠١٨). "الفرق بين القرية والمدينة". [محاضرة يوتيوب]. رابط إلكتروني: <https://www.youtube.com/watch?v=fUgoRR27Iro>
١٣. ماطوري، ج. (١٩٩٣). منهج المعجمية. (عبد العلي الودغيري، مترجم). المغرب، الرباط: منشورات كلية الآداب.
١٤. المصلح، خ. (١٤٣٧هـ). "الفرق بين لفظ {قرية} و {مدينة} في القرآن والمصطلحات الإدارية المعاصرة" [Al-Mosleh.tv، قناة يوتيوب]. رابط إلكتروني: <https://youtu.be/4Qhucl7vK4o>
١٥. ابن منظور، م. (١٩٩٩). لسان العرب. (ج. ١١، ط. ٣). (تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب & محمد الصادق العبيدي). لبنان، بيروت: دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي. موقع إلكتروني: <https://archive.org/stream/lisanarab6ita/lisara-11#mode/2up>
١٦. اليعقوبي، م. (٢٠٠٦). "الدراسة المعجمية للمصطلح". مجلة دراسات مصطلحية: ٥-٣١.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- [1] Abu-Zayd, N. (2003). The dilemma of the literary approach to the Qur'an. *Alif: Journal of Comparative Poetics*. (23): 8-47, <https://doi.org/10.2307/1350075>
- [2] Cohen, M. (1977). "Contextual analysis: an approach to the study of philosophic arguments". *Metaphilosophy*. 8(1): 3-20, <https://doi.org/10.1111/j.1467-9973.1977.tb00259.x>
- [3] Neuwirth, A. (2003). "Qur'an and history — a disputed relationship: some reflections on Qu'anic history and history in the Qur'an". *Journal of Qur'anic Studies*. 5(1): 1-18, <https://doi.org/10.3366/jqs.2003.5.1.1>
- [4] Pickthall, M. (trans.). (2000). The Meaning of the Glorious Qur'an: an Explanatory Translation. (2ed edition). U.K., Birmingham: U.K. Islamic Dawah Centre.
- [5] Rosyada, D. (2017). "A Contextual method of interpreting the Qur'an: a search for the compatibility of Islam and Modernity". *Advances in Social Science, Education and humanities (ASSEHR)*. 137: 1-6.

ثالثاً: المواقع الإلكترونية:

١. المصحف الإلكتروني مشروع أكاديمي لتوثيق القرآن إلكترونياً مع تفسيره. (غ.م.). جامعة الملك سعود. الرابط الإلكتروني: <http://quran.ksu.edu.sa>
٢. المعاني: لكل رسم معنى: نافذة علمية إلكترونية متخصصة في حصر كلمات القرآن. (٢٠١٠). [al-Maany.com]. الرابط الإلكتروني: <https://www.almaany.com/quran-b/%D8%A3%D9%8E%D8%B5%D9%92%D8%AD%D9%8E%D8%A7%D8%A8%D9%8C/>



Lexical-Contextual Clues to Word-Meaning of the Qur'anic word "Qaria"

Abeer Abdullah Abdul-Wahab Al-Abbasi

Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, College of Arts and Human Sciences, King Abdulaziz University, KSA
Aalabbasi@kau.edu.sa

Received Date : 17/4/2020

Accepted Date : 1/9/2020

DOI : <https://doi.org/10.31559/JALLS2020.2.3.1>

Abstract: The purpose of this paper is to highlight the unique feature and distinctive characteristic of the word "Qaria (village)" as used in the Qur'an, that sets it apart from similar words (such as *medina* (city) and *balda* (town)), thus, contributes to the linguistic inimitability of the Qur'an. We aim to argue in favor of the fact that the selection of words in the Qur'anic texts is not haphazard; rather it conforms to the contextual significations, the lexical semantic properties of the words and the social message they convey. To achieve this, the paper adopted lexical analysis of contextual approach that identifies the Qur'anic lexical phrases where the word 'qaria' is found as chunks and, thus, take into consideration the three-fold aspect of the word, those are: its semantic content, the forms of its derivational and inflectional affixes, and its contexts.

Keywords: Qaria; lexical approach; Qur'an; linguistic inimitability of the Qur'an; translation.

References:

- [1] 'tyh, L. '. (1971). Almsahbh Alm'jmyh: Almfhw Walanmat Walwza'f Byn Almwrvth Al'rby Walmnjz Allsany. Lbnan, Byrwt: Dar Alktb Al'lmyh.
- [2] Abn Hsn. A. (2018). "Aln't Alsbyy Walhqqy". Mntda 'lmy Elktrwny. Shbkt Alalwkh Aladbyh Wallghwyh Rabt Elktrwny: https://www.alukah.net/literature_language/0/129054/#ixzz5hkmxog47.
- [3] Abn Kthyr, E. (1999) Tfsyr Alqran Al'zym (Tfsyr Abn Kthyr). (Mj. 48;5, T.2). (Thqyq: Samy Bn Mhmd Alslamh). Almmllkh Al'rbyh Als'wdyh, Alryad: Dar Tybh Llnshr Waltwzy'. <https://waqfeya.com/book.php?bid=1696>
- [4] Abn Kthyr, A. (1991). Albdyay Walnhayh. (Mj. 4; 45). Lbnan, Byrwt: Mktbt Alm'arf.
- [5] Abn Mnzwr, M. (1999). Lsan Al'rb. (J. 11, T.3). (Nhqyq: Amyn Mhmd 'bd Alwhab &Mhmd Alsdaq Al'bydy). Lbnan, Byrwt: Dar Ehya' Alrath Al'rby Wm'essh Altarykh Al'rby. Mwg' Elktrwny: <https://archive.org/stream/lisanarab6ita/lisara-11#mode/2up>.
- [6] Abu-Zayd, N. (2003). The dilemma of the literary approach to the Qur'an. Alif: Journal of Comparative Poetics. (23): 8-47, <https://doi.org/10.2307/1350075>.
- [7] Albwshkhy, Sh. (2002). Nzrat Fy Almstlh Walmnjh. Almghrb, Fas: Mtb't Anfw Brant. Rabt Elktrwny: <https://archive.org/details/nadaratalbouchikhi/page/n1>.
- [8] Cohen, M. (1977). "Contextual analysis: an approach to the study of philosophic arguments". Metaphilosophy. 8(1): 3-20, <https://doi.org/10.1111/j.1467-9973.1977.tb00259.x>.
- [9] Alfrahydy, Kh. (2003). Ktab Al'yn Mrtba 'la Hrwf Alm'jm. (J. 3, T.1). (Thqyq: 'bd Alhmyd Hndawy). Lbnan, Byrwt: Dar Alktb Al'lmyh. Rabt Elktrwny: <https://archive.org/stream/fp77332/kamhm3#page/n383/mode/2up>.
- [10] Jyrarts, D. (2012). Nzryat 'Im Aldlalh Alm'jmy. (Trjmh: Fatmh Alshhry Wakhrwn, Mraj'h Wtdym: Mhmd Al'yd) Msr, Alqahrh: Alakadymy Alhdythh Lktab Aljam'y.
- [11] Alkyaly, ' M. (2018). "Alfrq Byn Alqryh Walmdynh". [Mhadrt Ywtywb]. Rabt Elktrwny: <https://www.youtube.com/watch?v=fugorr27iro>.
- [12] Almslh, Kh. (1437h). "Alfrq Byn Lfz {Qryh} W {Mdynh} Fy Alqran Walmslth Aledaryh Alm'asrh". Al-Mosleh.Tv, Qnat Ywtywb. Rabt Elktrwny: <https://youtu.be/4qhucl7vk4o>.
- [13] Matwry, J. (1993). Mnhj Alm'jmyh. ('bd Al'ly Alwdghyry, Mtrjmh). Almghrb, Alrbat: Mnshwrat Klyh Aladab.

- [14] Neuwirth, A. (2003). "Qur'an and history — a disputed relationship: some reflections on Qu'anic history and history in the Qur'an". *Journal of Qur'anic Studies*. 5(1): 1-18, <https://doi.org/10.3366/jqs.2003.5.1.1>.
- [15] Pickthall, M. (trans.). (2000). *The Meaning of the Glorious Qur'ān: an Explanatory Translation*. (2ed edition). U.K., Birmingham: U.K. Islamic Dawah Centre.
- [16] Alqrbtby, M. (2006). *Aljam' Lahkam Alqran Walmbyn Fyma Tdmnh Mn Ay Alfrqan*. (Mj.1321; 17;14, T.1). (Thqyq: 'bd Allh Bn 'bd Almhsn Altrky & Mhmd 'rqswsy, Mahr Alhbuwsh). Lbnan, Byrwt: M'sst Alrsalh Lltba'eh Walnshr Waltwzy', Ktab Elktrwny: https://ia802904.us.archive.org/8/items/waq73651/21_73671.pdf.
- [17] Rosyada, D. (2017). "A Contextual method of interpreting the Qur'an: a search for the compatibility of Islam and Modernity". *Advances in Social Science, Education and humanities (ASSEHR)*. 137: 1-6.
- [18] Shhrwr, M. (1994). *Aldwlh Walmjtm'*, Swrya, Dmshq: Alahaly Llnshr Waltwzy'.
- [19] Shhrwr, M. (2018). *Sfhh Alfys Bwk Alrsmyh Llmfkr Aleslamy Mhmd Shhrwr*. [Fys Bwk]. Alrabt Alektrwny: <https://www.facebook.com/dr.mohammad.shahrour/posts/1773415609441898>.
- [20] Albry, M. (2001). *Tfsyr Albry: Jam't Albany 'n Tawyl Ay Alqran*. (Mj. 423; 22; 20; 19, T.1). (Thqyq: 'bd Allh 'bd Almhsn Alsnwsy). Msr, Aljyzh: M'sst Hjr Lltba'h Walnshr Waltwzy'. Ktab Elktrwny: <https://ia802500.us.archive.org/18/items/waq59561/taftabry23.pdf>.
- [21] Aly'qwby, M. (2006). "Aldrash Alm'jmyh Llmstlh". *Mjlt Drasat Mstlhyh*: 5, 31-40.